دليل المناضل في النظرية

8

هانيرش أوبتنر

المادية والنقد التجريبي

عرض وقراءة لكتاب لينين



دليل المناضل
ـ في النظريـة ـ ٨ ـ

هانيرش أوبتنر

المادية والنقد التجريبي

(عرض وقراءة لكتاب لينين)

ترجمة عيسى عبد الرضا

دار ابن خلدون

ترجم الكتاب عن الالمانيـــة
وصدر عن دار ديتز للنشر برلين ١٩٧٥

دار ابــن خلـــدون
كورنيش المزرعة ـ بناية ريفييرا سنتر
بيــروت هاتف : ٣١٢٣٣٥
٨١٧٣٨٥
ص ب ١١٩٣٠٨

الطبعـــة الاولـــى
١٩٨١ /٣/٣

ملاحظـة أوليـة :

يحتل المؤلف الفلسفي الرئيسي للينين « الماديـة والنقد التجريبي » (١) موقعـا بارزا في الادب الماركسي ـ اللينيني الكلاسيكي . وهـو يعد في مصاف المؤلفـات الفلسفيـة ، مثل كتاب ماركس وانجلس « الايديولوجيـة الالمانية » ، او مؤلفات انجلس « ضـد دوهرنك » ،« ديالكتيك الطبيعة » و« لودفيج فورباخ ونهايـة الفلسفة الكلاسيكية الالمانيـة » . ويشكل مـع « الدفاتر الفلسفيـة » لـب المرحلـة اللينينية في تطويـر الفلسفـة الماركسية .

لقد طور لينين بهذا المؤلف الفلسفة الماركسية بابداع مـن خلال اجاباته على القضايـا الفلسفيـة المستجدة التي طرحتهـا الممارسـة الاجتماعيـة وتطور العلوم في بدايـة القرن العشريـن . وفيه دافع لينيـن عـن الماديـة

---

(١) كتب لينيـن هذا المؤلف في عام ١٩٠٨ ، ونشر لاول مرة في ايـار عام ١٩٠٩ في موسكـو .

الديالكتيكية والمادية التاريخية ضد هجمات المثالية والتحريفية الفلسفية . ووجه انتقادا مبدئيا الى الفلسفة البرجوازية الحديثة وعرى عجزها عن تقديم الاجابة التقدمية على المسائل الجديدة في الفكر . وارتباطا بذلك قدم الدليل المقنع بأن ممثلي التحريفية الفلسفية مهما كانت العناوين الرنانة التي ينشرون تحتها مفاهيمهم مثل « النقدية التجريبية » « الرمزية التجريبية» او « الاحادية التجريبية » لا يكررون من حيث الاساس سوى ثرثرة الفلاسفة البرجوازيين ، محاولين احياء التعاليم المثالية البالية التي علاها الغبار منذ زمن طويل .

لكن الاهمية التاريخية لهذا المؤلف لا تكمن في حقل الفلسفة الماركسية فحسب . فهو ذو اهمية اساسية ايضا لنشوء وتطور الحزب من الطراز الجديد.

وقد « لعب دورا بارزا في التطور الايديولوجي للحزب الماركسي ، وفي التأهيل النظري لكوادره ، وفي الدفاع عن مبادئه النظرية وتطويرها ، وكان وما زال يؤلف مادة لتربية الكادر الثوري في العالم اجمع » (٢).

وبالرغم من مرور عقود كثيرة على صدوره . لا يزال يحتفظ بحيوية واهمية عظيمتين في التطور اللاحق للفلسفة الماركسية وفي النضال ضد النظرة الامبريالية

---

(٢) تاريخ الحزب الشيوعي السوفياتي ، الطبعة الالمانية ، برلين ١٩٧٣ ، ص ١٦٠

للعالـم وضـد التحريفيـة الفلسفيـة في الوقت الراهن .

وتشكل دراسـة « المادية والنقد التجريبي » ، كما كانت عليه في السابق شروطـا اساسيـة لفهـم الفلسفـة الماركسيـة ـ اللينينية وامتلاك ناصيتها . ان عرضنا هـذا يستهدف استثارة الدراسـة المعمقة للكتاب ، وايقـاظ الاهتمـام به ، وخاصـة لدى الذيـن يطلعون عليه لاول مرة وذلـك بتزويدهم بدليل يساعدهم في دراسة المؤلف .

هنالك امكانيات مختلفـة لكتابة عروض لدراسـة مؤلفات معينـة في الماركسية ـ اللينينية : يمكـن للمرء ان يكتفي بلمحـة تاريخيـة عن نشوء المؤلف ، ويمكـن اضافة شـيء عـن الغايـة التي يتوخاهـا المؤلف . ومن الممكـن ايضا عرض فصوله وفقراته بالتتابع . ويمكـن ايضـا ان يكتفي المرء بوصف لمجمل المؤلف وتبيـان مـا حققـه مـن تقدم علمـي .

سنتطرق في عرضنـا هذا ، بأختصار ، الى الظروف التي دعت لينين الى كتابته (٣) . وفي هذا الصدد ينبغـي تفسيـر الكلمة المعقدة « النقديـة التجريبيـة » من اجل توضيح عنوان المؤلف . وبعـد ذلـك سنبيـن بفقـرات مختصرة البناء الفكري للفصول المختلفـة والمنطق الداخلـي

---

(٣) يجد القاريء عرضـا تفصيليـا عن الظروف التاريخية لنشوء المؤلف في مقدمة المجلد الرابع عشر لمؤلفات لينين الصادرة عـن معهـد الماركسيـة ـ اللينينية التابعـة للجنـة المركزية لحزب الشيوعـي السوفياتـي .

للمؤلف لمساعدة القاريء في الحصول على لمحة اولية عنه .

وسنبرز في القسم الرئيسي التالي عددا من الافكار الاساسية التي تمتد في ثنايا المؤلف كخيط احمر ، ونعمل على تقريبها للقاريء من منظور ايامنا الحالية .

ان العرض لا يمكن ابدا ان يعوض عن دراسة المؤلَف ، ولا يستطيع بالمرة ان ينقل للقاريء معايشة الكتاب لاحداث عصره ، اي تلك الانطباعات التي يكتسب القاريء من خلالها ليس مضمون العمل وطريقته واسلوبه وحسب، بل ايضا يتعرف عن كثب على شخصية الكاتب . وفي هذه الزاوية بالذات يعتبر كتاب لينين « المادية والنقد التجريبي» مؤلفا ممتازا . ان دراسته توضح بجلاء الطابع الصدامي والموقف المنحاز للمادية الديالكتيكية والمادية التاريخية وكذلك تفوقهما على الفلسفة المثالية . كما انها تجعل القاريء يعايش لينين نفسه ، بقوة افكاره وجبروت لغته، وبما كان يمتلك من فن وسلاح المناظرة ، ونضاله المبدئي الحار ضد كل مزيفيي الفلسفة الماركسية والمفترئين عليها .

وهكذا ينبغي ونحن ندرس هذا المؤلف ان لا ننهل من معارفه فحسب ، بل ان نتعلم منه ايضا كيف نعزز ونطور قدرتنا على المناظرة الهجومية ضد الخصوم .

الفصل الاول

حول الظروف التاريخية لنشوء المؤلف

كتب لينين مؤلفه « المادية والنقد التجريبي » في حقبة هامة جدا بالنسبة للحركة العمالية الروسية والعالمية. فأوربا برمتها كانت ترزح تحت تأثير الثورة البرجوازية ـ الديمقراطية الاولى التي نشبت في روسيا بين ١٩٠٥ و١٩٠٧ . وبالرغم من ان النصر لم يكتب لها ، كان لا بد لها ان تؤثر تأثيرا عظيما في التطور اللاحق لروسيا وفي تطور الحركة الثورية العالمية . فلاول مرة في التاريخ تسنمت البروليتاريا دفة القيادة في الثورة البرجوازية ـ الديمقراطية وتجلى للعيان بأنها هي وحدها المناضل الثابت من اجل الديمقراطية والحرية والتقدم الاجتماعي . وبذلك تأكد تقدير لينين الوارد اثناء الثورة في كتابه« خطتا الاشتراكية ـ الديمقراطية

في الثورة الديمقراطيــة » . كمــا ابرزت الثورة في روسيا وسائل وصيغ للنضال الثوري لم تعهدهــا الثورات من قبل، مثل الاضراب الجماهيري السياسي وتحوله الى انتفاضــة مسلحــة ، وكذلــك سوفياتات مندوبي العمال ، التي لــم تكــن اجهــزة للانتفاضــة اثناء النضال الثوري وحسب، بل ايضــا اجنة للسلطــة الجديدة ، الدكتاتوريــة الثوريــة الديمقراطيــة للبروليتاريــا والفلاحيــن . وبعد اخفــاق الثورة صفت الحكومة القيصريــة حسابها بالعنف والدمــاء مع كل من تجرأ على الانضمــام الى الثورة . فأعدمت بدون رحمة الآلاف ، وحكم على عشرات الآلاف بالسخرة ، ووجهت الى الطبقة العاملــة وحزبهــا الثــوري اعنف الضربات . فلاحقت اعضاء الحــزب البلشفي في جميع انحاء البــلاد الذيــن تعرضوا الى التعذيب الوحشي والسجن والنفــي . لكــن الحزب صمــد امام هذا الارهاب وتلاحم بقوة أشــد مع الطبقــة العاملة ، وعرف كيف يصون قواه الرئيسية . واثناء العمل السري أجرى تقويمــا مع العمــال لخبــرات الثورة ، من اجل التصليب النظري للطبقــة العاملة فــي النضالات الثوريــة القادمــة .

وبعكس الطبقــة العاملة وحزبهــا الثــوري استسلم امام الرجعيــة القيصريــة العديــد من القوى والمجاميــع المعارضــة آنذاك فتبرأوا من الثورة . وتفشى في اوساط البرجوازيــة الصغيرة والمثقفيــن البرجوازيين ، التخــاذل والقنوط والخيبة ـ وأخذوا يفتشــون عن مثل جديدة ، عن آمال جديدة او التجأوا الى الديــن . واستغلت الحكومــة

القيصرية هذه الحالة ، واعتمدت ـ اضافة الى الارهاب الدموي ـ جميع الوسائل من اجل تعميق هذه البلبلة الايديولوجية ، فشجعت ودعمت بث نظريات صوفية، دينية تكن العداء للنظرية الثورية للماركسية . وتلقت في ذلك العون من المثقفين البرجوازيين ، الذين كانوا في ركاب الثورة ، وتحولوا الى مهاجمة الماركسية محاولين تفنيدها ، مسلطين النار على النظرة المادية الديالكتيكية للعالم . فزعموا ان الماركسية قد تخلفت وشاخت ، في حين عزوا للدين والتعاليم الصوفية الاخرى انجازات معرفية كبيرة . وكان لهذه الهجمة الرجعية تأثيرها على الجبهة الايديولوجية . فحصل ، حتى بين صفوف الثوريين ، تذبذب ايدويلوجي ، فاتخذ بعض اعضاء الحزب من المثقفين مواقف تحريفية وبدأوا في « تصحيح » الماركسية و « رفدها » بنظريات برجوازية ومثالية . وبذلك برزت الى المقدمة امام الحزب البلشفي في ميدان الكفاح الايديولوجي مهمة الدفاع عن الماركسية ولا سيما اسسها الفلسفية .« لقد اصبح النضال من اجل النقاوة الايديولوجية للاسس النظرية الماركسية اكثر الحاحا، بعد ان ايقظت الثورة فئات واسعة من الشعب وزجتهم في الحياة السياسية . فقد دخل الحزب العديد من العمال الذين ساهموا في المعارك السياسية. فبداوا في التعرف على الماركسية» (٤) .

(٤) تاريخ الحزب الشيوعي السوفياتي ، مصدر سابق ، ص ١٥٦ .

من ناحية اخرى كان من الضروري ايضا الدفاع عن النظرية الماركسية بسبب الاوضاع العالمية التي وجدت تعبيرها في الحالة الايديولوجية والفكرية في بداية قرننا ، والتي لعبت دورا هاما في الحركة العمالية الاوروبية وفي العالم ايضا . ويأتي في مقدمة ذلك نشوء التحريفية في اوساط الحركة العمالية والزعم بوجود ازمة في العلوم الطبيعية .

وعندما تغلغلت الماركسية في العقد الاخير من القرن الماضي نهائيا الى الحركة العمالية وانتصرت على جميع النظريات البرجوازية والبرجوازية الصغيرة وعلى كل محاولات تحطيمها من الخارج (مثلا قانون الاشتراكيين لبسمارك) وجدت البرجوازية نفسها مرغمة على تغيير تكتيكها ، محاولة نخر الماركسية من الداخل . واعلن منظرو وساسة الاشتراكية الديمقراطية الذين يدعون الماركسية ، بأن الماركسية لا تتلاءم مع العصر وهي بحاجة الى تعديل اساسي . قال لينين : « وان ديالكتيك التاريخ لهو على نحو يجبر فيه انتصار الماركسية في حقل النظرية اعداء الماركسية على التقنع بقناع الماركسية» (٥) وقد حلل لينين بالتفصيل في هذا الكتاب الذي الفه في نيسان ١٩٠٨ ، نشوء التحريفية في الحركة العمالية العالمية . وعرى جذورها الطبقية وبين ان التحريفية

(٥) ف.أ. لينين : مصائر مذهب كارل ماركس التاريخية ، في المختارات ، المجلد (٥) ص ٢٨ ، دار التقدم ـ موسكو ، ١٩٧٦ .

هـي « ظاهرة عالميـة » يرتبط نشوؤهـا بوثوق بالتطـور الجديـد للرأسماليـة ، لذا فهي أمر لا بد منه في المجتمـع الرأسمالـي» (٦) . امـا خطرهـا فقـد ادركه قبل ذلـك، حيث قـد كتب من منفاه في Schusohensloje في خريف عام ١٨٩٩ مقالة لـ Rabotschaja Gaseta جـاء فيهـا : «تعاني الاشتراكيـة العالميـة في الوقت الراهن اضطرابا في التفكير ، فحتى الان كانت تعاليم ماركس وانجلس تعتبـر اساسا مكينا للنظريـة الثوريـة ، اما الان فترتفع في كـل مكـان اصوات تقول بأن هذه التعاليم لا تكفي وبأنهـا قـد شاخت وكل من يعلـن عـن نفسه انه اشتراكي ـ ديمقراطي ... يتعين عليه ان يحدد بدقة موقفه من المسألة التي هـي ابعـد من ان تشغل بال الاشتراكيين الديمقراطيين الالمـان وحدهم» (٧). وحدد لينيـن مـن جديـد موقفـه السابق الذي ثبته بجلاء في اعماله السابقة ، مثلا في « مـن هـم اصدقاء الشعب وكيف يناضلـون ضد الاشتراكيـة ـ الديمقراطيـة ؟ » في عام ١٨٩١ ، وذكـر ، قبل كل شـيء وجهتي نظـر مبدأيتيـن ، الاولى : « اننـا نقف كليـا علـى ارضيـة نظريـة ماركس : فهي التي حولت للمرة الاولـى الاشتراكيـة من طوبويـة الى علـم ، وارست هذا العلم على

---

(٦) قارن : لينين : الماركسية والنزعة التحريفية في المؤلفات ، المجلـد ١٥ ، ص ٢٦ (الطبعـة الالمانيـة) .

(٧) لينين : برنامجنـا المختـارات ، الجـزء الاول ، دار التقـدم ـ موسكـو ١٩٦٨ ، ص ٤٢ .

اسس ثابتة ورسمت الطريق الذي ينبغي السير فيه مع تطوير هذا العلم باستمرار مع دراسته وتعميقه ، بجميع تفاصيله » (٨) .

الثانية : فنحن لا نعتبر ابدا نظرية ماركس شيئا كاملا لا يجوز المساس به ، بل اننا مقتنعون ، على العكس، بانها وضعت حجر الزاوية فقط لذلك العلم الذي يترتب على الاشتراكيين ان يدفعوه الى الابعد في جميع الاتجاهات، اذا شاؤوا الا يتأخروا عن موكب الحياة (٩) .

ان هذين المبداين ـ الاخلاص المطلق للنظرية العلمية للطبقة العاملة والموقف الخلاق تجاهها، الموقف الذي ينتج كعاقبة في المبدأ الاول ـ يميزان كل المؤلف العلمي للينين . اما بخصوص «ازمة العلوم الطبيعية» المذكورة (سنتطرق اليها بالتفصيل) فالامر يتعلق بأختصار بما يلي : ارتباطا بسلسلة الاكتشافات الهامة للفيزياء في نهاية القرن الماضي، تحطمت صورة العالم المادية العفوية عند العديد من علماء الطبيعة، الصورة التي كانوا يؤمنون بها سابقا. وظهرت غير قابلة للتوافق مع اكتشاف النشاط الاشعاعي، والاشعاعات، والمجال المغناطيسي وغيرها، لان صورة العالم هذه كانت تستند في الجوهر على تصور وحيد الجانب، المادة هي شيء ملموس Stoff لا غير، او كتلة بكل بساطة. وعند اكتشاف الالكترونات والانشطار الاشعاعي ظهر وكأن العالم

---

(٨) نفس المصدر السابق ، ص ٤٢ .

(٩) نفس المصدر السابق ، ص ٤٤ .

كلــه قد تحطم. وظهر ان الذرة، التي كانت على مدى مـــا يقارب القرنين ثابتة وغير قابلة للانشطار، تنحل الى كهربة. والاستنتاج كان : المادة تنفقد بالاشعاعات، المادة تتلاشـــى!. ومثل هذا الرأي العديد من الفيزيائيين واعربوا عن شكــوك كبيرة تجاه المادية. واستغلت صعوبة المعرفة في مجـــالات العلوم الطبيعية بسعة من قبل الفلسفة البرجوازية، خاصة الوضعية، ومن قبل دعاة التحريفية، لشن النضال ضـــد المادية الماركسية واعلانها متخلفة وشائخة، او هي بحاجة الى اصلاح اساسي. ولم يقم قادة ومنظرو الاممية الثانية فــي الواقع بأي شيء فعال لصد هذه الهجمة، بل بالعكس فقــد صبروا على تغلغل المذهب الفلسفي البرجوازي في الحركـة العمالية واستسلموا امام الفلسفة المثالية. واعلنوا ان المادية الديالكتيكية هي قضية خاصة بمـــاركس وانجلس وبكـــل اشتراكي ديمقراطي. والعواقب المشؤومــة لهــذا الموقف ، بالنسبة للحركة العمالية الالمانية مثلا، لا سيما فيما يتعلــق بالوضع الايديولوجي، معروفة .

فخلال ما يقارب العقدين بقيت ساحة الحركة العمالية الالمانية فريسة للفلسفة البرجوازية ولايديولوجية حتى اليوم الذي اعلنت فيه روزا لوكسمبرغ الحقيقة التاريخية العميقة عند تأسيس الحزب الشيوعي الالماني في كانون الاول مـــن عام ١٩١٨ عندما قالت : «نحن مرة اخرى عند ماركس !.

هذه بعض الروابط التاريخية التي تميز الفترة التـــي كتب بها لينين مؤلفه . لكن ما هي المناسبة المباشرة لذلك؟.

من المعروف ان لينين انجز مؤلفه هذا في عدة اشهر،

وكان مهتما جدا بأصداره بسرعة. وقد شرع في تأليفه اثناء لجوئه الى سويسرا، وبسبب عدم توفر المصادر الضرورية في مكتبات جنيف سافر في مارس من عام ١٩٠٨ الى لندن، بغية دراسة المصادر الفلسفية والعلمية الموجودة في مكتبة المتحف البريطاني. ما هو سبب تسرعه؟ من المفيد دائما التعرف على الظروف التي كتب بها الكلاسيكيون هذا العمل او ذاك. وتشكل رسائلهم الكثيرة مصدرا هاما في هذا الصدد. ونجد ايضا في رسائل لينين التي كتبها في عام ١٩٠٨ الاجابة عن السؤال المطروح اعلاه. ففي احدى الرسائل المؤرخة في ١٩٠٨/٣/١٦ التي ارسلها الى غوركي (الذي كان موجودا انذاك في كابري) نجد ما يلي : ... يبدو ان المزاج عندكم جيد، والفكر في وضعية جيدة، والحياة اعتيادية. لكن الامور عندنا لا تجري بشكل حسن ... بسبب هذه الفلسفة اقف نوعا ما مع .AL. AL (١٠) على اهبة الحرب. لقد تركت الجريدة بسبب ولعي الفلسفي، اليوم أقرأ لاحد النقاد التجريبيين واشتم مثل بائعة في السوق. وغدا أقرأ لاخر والعن مثل سائق عربة (١١) .

ماذا حدث؟ ايضاح ذلك نستطيع ان نستحصله من احدى الرسائل التي ارسلها لينين الى غوركي بتاريخ ١٩٠٨/٢/٢٥ وبها يخبره بانه مشغول بأحد الكتب الذي

---

(١٠) المقصود هو بوغدانوف (اسمه الحقيقي

Alexander Alexandrowitsoh Malinowski

(١١) لينين ، الرسائل ، المجلد ٢ ، ص ١٤٧ (الطبعة الالمانية) .

صدر في بداية عام ١٩٠٨ في روسيا والذي يسمى (مساهمات في الفلسفة الماركسية). لقد اثارته جدا هذه «المساهمات»، لانها تتضمن كل شيء، ما عدا الفلسفة الماركسية. والمؤلفون كلهم كانوا في انصار الاشتراكية الديمقراطية الروسية ، من المثقفين، وقسم منهم بلاشفة. لكن لينين بحذر كتب : « انا لا اعتبر نفسي متمكنا بقدر كافي في هذه القضية، لذا لا اتسرع بالظهور في الصحافة لكنني تتبعت دائما نقاشاتنا الحزبية حول الفلسفة بانتباه(١٢) بهذا يذكر لينين غوركي بالنزاعات التي جرت مع الشعبين وبالنزاعات الاخرى في السنوات السابقة. ويذكر بالاعمال الفلسفية لبوغدانوف، التي اطلع عليها دائما واقنعته جذريا بخطأ اراء بوغدانوف. ولو انه ابتعد في البداية عن النقاشات الفلسفية، لكنه لا يستطيع الان ان يتخذ نفس الموقف في زمن الثورة المضطرب لم يشغل المرء نفسه بالفلسفة. وقد كتب بوغدانوف في السجن في بداية عام ١٩٠٦ كتابا اخر ــ اعتقد الكتاب الثالث للـ«احادية التجريبية». وفي صيف عام ١٩٠٦ ارسله الي، وبدات اقراه بانتباه. وبعد ان قرأته انتابتني موجة غضب عنيفة ، لقد تجلى لي بشكل اوضح بانه يسير في طريق خاطيء في الاساس، طريق غير ماركسي وكتبت له انذاك «رسالة حب»، رسالة صغيرة حول الفلسفة بحجم ثلاثة دفاتر. ونازعته فيها، ولانني طبعا في الفلسفة ماركسي بسيط فقط ، لكن اعماله الواضحة ، الشعبية ،

---

(١٢) نفس المصدر السابق ص ١٣٨ .

المكتوبة بصورة جيدة جدا، اقنعتني نهائـيا، بأن ليليخانوف في جوهر القضية الحق، وليس له اي حـــق . وعرضت نفس الدفاتر على بعض الاصدقاء (منهم لونتشارسكي) وولد عندي فكرة نشرها تحت عنوان (ملاحظات ماركسي بسيـــط حول الفلسفة) لكنني لم اتمكن من ذلك. والان انا نادم لكوني لـــم اعمل على طبعها انذاك .. والان نشرت «مساهمات في الفلسفة» . لقد قرأت كل المقالات، ما عدا مقالة سوفاروف (أقرأها الان) وعند قراءة كل مقالة يتملكني الغضب، كلا، هذا ليس ماركسيا! واصحابنا النقديين التجريبيين، اصحابنـا الاحاديين التجريبيين، واصحابنا الرمزيين التجريبييــــن يسيرون بأستقامة الى المستنقع. يريدون ان يقنعوا القارىء، بأن «الاعتقاد» بواقعية العالـــم الخارجـــي هو «تصوف» (بازاروف)، ويشابكون المادية والكانطية بشكل اكثر خزيـــا (بازاروف وبوغدانوف)، ويوعظون احد انواع اللاعرفانيـــة (النقدية التجريبية) واحد انواع المثالية (الاحادية التجريبية) ـ يعلمون العمال «الالحادية الدينية» وتأليه اسمى الطاقـات الانسانية (لونتشارسكي) ـ يعلنون بان تعاليم انجلس حـول الديالكتيك هي متصوفة Mystil (برمان) ـ يغرفون من البئر النتنة لاية «وضعية» فرنسية، من اي، لا عرفانـــي، او ميتافيزيقي، ليأخذهم الشيطان مع نظريـــة معرفتهـم الرمزية (يوشكوفيتش)! كلا، ان هذا لكثير! بالطبع نحـــن الماركسيون البسطاء لسنا متضلعيــن في الفلسفة، لكن لماذا يعاملوننا بهذا الاسلوب، ويقدمون لنا مثل هـــذه الاشيـاء بوصفها فلسفة ماركسية! اولا ادعهم يمزقونني الى اربعـــة

اجزاء، قبل ان اعلن موافقتي على المشاركة في جهـــاز او مجلس، يوعظ بمثل هذه الاشياء» (١٣) .

تبين هذه الرسالة مزاج لينين بعد اطلاعـــه علـــى «مساهمات في الفلسفة»، وعلينا ان نعرف بأن مؤلفـــي «المساهمات» هم على الغالب اعضـــاء قياديـــن فـــي (حزب العمال الاشتراكـــي الديمقراطـــي في روسيـــا) SDAPR الذين عمل معهم لينين في النشاط العملي ـ السياســـي. لكن لينين لم يستطع ان يسلك موقف اللامبالي تجاه القضية الاساسية للنظرية الثورية للطبقة العاملة .

لقد ادرك الخطر الذي سيعم الحزب اجمعه، عندمـــا تنتشر مثل هذه النظريات ، وخاصة عند تقنعها بقنـــاع الماركسية. فالصراع المبدئي مع مثل هذه الاراء كان فـــي مصلحة الحزب كله، وفي مصلحة التسريع فـــي التصليب الايديولوجي للحزب. لينين لم يدع احدا يقسمه الى اربعـــة اقسام فقد كتب مؤلفه «المادية والنقد التجريبي» في الفترة الواقعة ما بين شباط وتشرين الاول من عـــام ١٩٠٨، ونشر لاول مرة في مارس من عام ١٩٠٩ كطبعة منفردة. اما فيمـــا يتعلق بملاحظات لينين بصدد «ماركسي بسيط» و « غيـــر متضلع بالفلسفة» فهي تستغل الان من قبل الخصوم،بمثابة «سند» للادعاء بان لل«المادية والنقد التجريبي » اهميـــة فلسفية ضئيلة فقط، هكذا لا يتوضح من التواضع الحكيـــم للينين فقط، بل انه بلا شك ايضا مواجهة استهزائيـــــة

---

(١٣) لينين : الرسائل ، نفس المصدر السابق ص ١٤١ ـ ١٤٢ .

لبوغدانوف وبازاروف والاخرين، الذين كانت حدود قدراتهم الفلسفية حافية عليهم، وفيما يتعلق بالفلسفة، فقد انشغل لينين بأهتمام بالغ ليس فقط بالفلسفة، بل ايضا بالمؤلفات العلمية الطبيعية التي كانت متوفرة انذاك. « لقد انجز عملا علميا هائلا، درس مئات المصادر الفلسفية والعلمية، خاصة الفيزياء باللغات الالمانية، الفرنسية، الانجليزية والروسية لقد قرأ مرة اخرى الاعمال الفلسفية لماركس وانجلس وكذلك اعمال بليخانوف، مهرنغ ، فورباغ ودتيزغن وغيرهم (١٤) » تبين كروبسكايا زوجة لينين النشاط الدراسي الذي قام به ارتباطا بمؤلفه «المادية والنقد التجريبي» (١٥).

لنرجع مرة اخرى للتكلم عن «مساهمات في الفلسفة الماركسية». لقد كانت هذه المساهمات ممرا للهجوم على المادية الديالكتيكية، والمادية التاريخية. ولكن ما يثير الاهتمام هو ان هذه الهجمات لم تظهر بصراحة في نسق الصحافة والادبيات الرجعية، كلا فأن مؤلفي هذه الاعمال لم يستطيعوا غالبا القسم بما يكفي، بانهم ماركسيون. لكن اعمالهم كانت كل شيء، ما عدا كونها ماركسية. ويدعون ان المسألة الاساسية للفلسفة المكتشفة من قبل ماركس وانجلس، التي افترق بالاجابة عليها مبدئيا، مثلما هو معروف، الماديون والمثاليون، لم تعد، استنادا الى المسائل الجديدة للعلوم

---

(١٤) لينين : بيوغرافي برلين ١٩٧١، ص ٢٣٨ (الطبعة الالمانية) .

(١٥) قارن : كروبسكايا ، هذا هو لينين ، برلين ١٩٦٦ ص ٤٥٧/٤٥٨ و٤١٠/٤٢٢ .

الطبيعية، مبررة. على سبيل المثال، الصراع بين المادية والمثالية لا يمس بأية صورة من الصور القضايا الدينية. نعم، ان المادية والمثالية قابلتان حتما للتوحيد مع الدين. وقد تمت البرهنة على وجهة النظر التي تدعي بعدم وجود المادة خارج الوعي، حسب ادعائهم، من قبل العلوم الطبيعية. فالموضوعي والواقعي هو فقط الاحساسات، التجارب، ولا يوجد «وراءها» شيئا ماديا، اذا ليس ما يثير الاحساسات. والديالكتيك قد «شاخ» ايضا، بأختصار، ان المرء بحاجة الى «فلسفة اكثر حداثة» ـ يجب ان يعاد النظر بالفلسفة الماركسية. هذه كانت الافكار الاساسيةالتي مثلهابوغدانوف، بازاروف، برمان، يشكوفيتش، لونتشارسكي وغيرهم في «المساهمات» .

والفلسفة الجديدة التي نصحوا بها، كانت فلسفة ماخ وافيناريوس، مما اعطاهم اسم الماخيين. من هو ماخ، ومن هو افيناريوس، وما هي اراؤهما ؟

ارنست ماخ (١٨٣٨ ـ ١٩١٦) كان فيزياويا نمساويا وفيلسوفا، وريشارد افيناريوس (١٨٤٣ـ١٨٩٦) فيلسوف الماني. وكان الاثنان يمثلان مذهبا ذاتيا ـ مثاليا ، الامر الذي يتوضح من خلال اعتماد وجهات نظرهم الاساسية على تعاليم الفلاسفة الانجليز جورج بريكلي (١٦٨٥ـ١٧٥٣) وديفيد هيوم (١٧١١ـ١٧٧٦). وقد انكرا، ماخ وافيناريوس وجود العالم الواقعي الموضوعي خارج الوعي الانساني، وادعا، بأن الشيء الموجود فقط، هو المعطى ايجابيا في الوعي بصورة مباشرة. وهذا «المعطى المباشر» سماه ماخ

وافيناريوس بـ «سلسلة حياة» وتيودور تسيهن (١٨٦٢ ـ ١٩٥٠) اعطاه الاسم الشنيع» Gignonenc .

لقد ربط هؤلاء الفلاسفة وجود اشياء وظواهر العالم الخارجي الواقعي بالفاعل، بشكل ادق، بالاحساسات الانسانية والتجربة. وتعزى واقعية الاشياء الى ظواهر معينة للوعي الانساني (احساس، تجربة!. اذن الامر يتعلق بفلسفة ذاتية ـ مثالية : التجارب ، الاحساسات، بأختصار، وعي الناس هو أولي نسبة الى الطبيعة، الوجود . والعالم يتوجد فقط الى الحد الذي يمكن به تحديده ومراقبته من قبل التجارب. والذي لا يتوافق مع هذا المقياس هو غير موجود بكل بساطة. ويمثل هذا الفهم تحول كل الحقيقة المحيطة بالانسان الى مجموعة من حقائق الوعي. وقد مثل ماخ في الواقع الراي السخيف التالي : لا نستطيع ان ندرك الذرات في اي مكان، فهي مثل كل (الماهيات) اشياء فكرية» (١٦).

ان هذا الاتجاه الفلسفي للمثالية الذاتية، الذي يجعل وجود الاشياء والظواهر مرتبطا بادراك وضعي، بتحديد قابل للمراقبة من قبل التجارب يسمى بشكل عام بالوضعية . لكن ماخ وافيناريوس اعطيا فلسفتهما اسما اخرا، لقد نعتاها بـ «التجريبية النقدية»، وبهذه التسمية ارادا ان يعبرا على ان الفلسفة قد وضعت لنفسها مهمة الملاحظة الانتقادية المفكرة للتجربة (الخبرات، المعلومات الادراكية). ولان الخبرات هي

(١٦) ارنست باخ : الميكانيك في تطوره ، لايبزغ ١٩٠٤ ،ص ٤٦٣ .

المعطاة فقط، يمكن ان تكمن مهمة الفلسفة في تحليلها انتقاديا لا غير. على هذا الاساس يتمكن المرء مثلا من الكشف عن قيمتها المعرفية، حقيقتها، عن اهمية الرموز اللغوية وعن اشياء اخرى. واجرى افيناريوس محاولة ايضا لاعطاء الملاحظة المذهبية ـ الانتقادية للتجارب معادلات رياضية، مثلما عبر عن ذلك في تعاليمه بصدد «التنسيق المبدئي». وقد ناقش لينين هذا في الفقرة الثالثة من الفصل الاول . وكان ماخ يهدف، من بين الاهداف الاخرى، الى توضيح قيمة او محتوى التجارب في ما يسمى بأقتصاد الفكر، اي امتيازات الفكر. وانتقد لينين مبدأ الاقتصاد الفكري في الفقرة الثالثة في الفصل الثالث .

من اجل ان نعبر بصيغة مفهومة نوعا ما، نستطيع ترجمة النقدية التجريبية الى «الفلسفة النقدية للتجارب» او الى «النقد التجريبي الفلسفي». وقد شكلت هذه الفلسفة للمحرفين الروس مبادرة حديثة او «تعديلا» للمادية الديالكتيكية والتاريخية. وبذلك (من اجل تمويه كل القضية بعض الشيء) سعى العديد من المحرفين لاعطاء النقدية التجريبية مصطلحات خاصة بهم. فبوغدانوف سمى مفهومه الفلسفي بـ «التجريبية الاحادية» ويشكوفيتش بـ«التجريبية الرمزية» والاخرين مثل سوفاروف بـ «الواقعية» فقط. من الواضح بأن مثل هذه الفلسفة، يجب ان تتوجه بالنتيجة ضد الحركة العمالية وضد تراث الحزب الثوري. فمن انكار المذهب المادي ينتج لا محالة انكار لقوانين التطور الاجتماعي الموضوعية، وبذلك يتولد الشك بصدد ضرورة النضال من

الاشتراكية، من اجل المهمة التاريخية للبروليتاريا عموما. وقد خدمت التحريفية الفلسفية هذا الغرض السياسي في بداية هذا القرن في روسيا حيث ظهرت بصيغة الماخية، وكذلك في المانيا وفي النمسا وفي بلدان اخرى .

مثلما ذكرنا فان العديد من منظري الاممية الثانية بذلوا جهدهم في بداية هذا القرن لتحقيق تحريف اساسي في جميع مجالات الماركسية. وظهرت هذه التحريفية في مجال الفلسفة بتيارين : الكانطية الجديدة، والوضعية. وهما لا يشكلان ابداعات جديدة، بل يعكسان تأثير الفلسفة البرجوازية في ذلك الحين على الحركة العمالية، وعند انتقال الراسمالية الى مرحلتها الامبريالية حدث انعطاف شنيع في الفلسفة البرجوازية نحو المثالية الذاتية. وقد وجد اتجاه استند الى فلسفة عمانوئيل كانط، وسعى في توسيعه باول ناتورب وارنست كاسيرر وهرمان كوهن (مدرسة ماربورغ) وقد حاولوا على سبيل المثال تطوير التعاليم المعرفية الكانطية باتجاه ذاتي ـ مثالي متطرف . وارتكزوا بذلك على فرضية كانط : العالم وقوانينه غير قابلة للادراك اساسا. اما ويلهلم فيندل باند، وهاينرش ريكرت وغيرهما (مدرسة بادن) فقد استندوا على النظرية الاخلاقية لكانط وحاولوا برهنة كون التعاليم الاخلاقية هي اساس كل الفلسفات والنظريات الاجتماعية. والاتجاه الاخر للفلسفة البرجوازية الرسمية، المذكور توا، الوضعية. وانتشرت هذه الوضعية على الغالب في النمسا وروسيا (الماخية) . وقد مثلت الكانطية الجديدة في الحركة العمالية الاوروبية من قبل

منظري وايديولوجي الاشتراكية الديمقراطية، كونراد شميدت ادوارد برنشتاين، كارل فورليندر وماكس ادلر. وادعى هؤلاء الممثلون للسياسةالاشتراكية الديمقراطية اليمينية،من بين ما ادعوا، بان الماركسية لا تمتلك نظرية اخلاقية خاصة بها. ومن اجل المساعدة في سد هذا النقص ينبغي على الحركة العمالية الاهتمام بفلسفة كانط وخاصة بتعاليمه الاخلاقية، والاستفادة منها. ومثلت الوضعية في الحركة العمالية، لا سيما من قبل فريدرك ادلر (النمسا) ومن قبل الماخيين الروس، وكتب لينين عن هذه التحريفية الفلسفية ما يلي : في حقل الفلسفة، سارت النزعة التحريفية في زبد «العلم» التدريسي البرجوازي، و «عاد» الاساتذة المدرسون الى «كانط» ـ وسارت النزعة التحريفية في ذيل الكانطيين الجدد. ولاك الاساتذة السخافات الكهنوتية الفارغة مرة اخرى ضد المادية الفلسفية، فاذا المحرفون يبتسمون بشفقة ويتمتمون (كلمة بعد كلمة حسب كتاب الجيب الاخير) زاعمين ان المادية قد «دحضت» منذ زمن بعيد . ونعت الاساتذة هيغل بسخرية بانه «كلب فطس».بل انهم كرروا بالمثالية، بمثالية احقر واسخف الف مرة من مثالية هيغل، وهزوا اكتافهم بازدراء عند الحديث عن الديالكتيك، فاذا المحرفون يتخبطون وراءهم في مستنقع التحقير الفلسفي للعلم، مستعيضين عن الديالكتيك «المنمق» و(الثوري) «بتطور بسيط» و (هادىء)، وكان الاساتذة يكسبون معاشاتهم الرسمية، مكيفين مناهجهم المثالية و«الانتقادية» وفقا «للفلسفة» السائدة والموروثة من القرون

الوسطى (اي اللاهوت)، ـ واذا المحرفون يقفون الى جانبهم، ساعين قصارى جهدهم لكي يجعلوا من الدين « قضية خاصة» لا بالنسبة للدولة المعاصرة، بل بالنسبة لحزب الطبقة المتقدمة (١٧) .

ان الوظيفة السياسية للتحريفية الفلسفية، التي بدأت تتنامى في الحركة العمالية كالورم السرطاني في بداية هذا القرن ، ليست صعبة الادراك . ينبغي اثارة البلبلة الايديولوجية في اوساط الحركة العمالية، ويجب تغطيس هدف النضال الطبقي البروليتاري في ظلام مضبب، من اجل ان يختفي في الاخر تماما عن مجال الرؤيا .

وقبل كل شيء يجب تصفية الاحزاب الثورية للطبقة العاملة وتقسيم الحركة العمالية. وهذا يخدم مباشرة وراسا مصالح راس المال الاحتكاري ، بهدف ، رضوخ الطبقة العاملة الدائمي لاسلوب الاستغلال الراسمالي. وادرك الخصوم بان تحقيق هذا الهدف ممكن فقط عند التوصل الى تصفية النظرية العلمية والتنظيم السياسي للطبقة العاملة. وضد هذه المفاهيم السياسية للخصوم الامبرياليين ولاذنابهم توجه نضال لينين ونضال كل القوى الثورية في الحركة العمالية العالمية. وقد برهن قبل ذلك في اعماله «ما العمل؟» (١٩٠٢)، و«خطوة الى الامام، خطوتان الى الوراء» (١٩٠٤)، وفي كراسات عديدة اخرى، على ان

---

(١٧) لينين : الماركسية والنزعة التحريفية، في المختارات، الجزء ١ موسكو ـ دار التقدم ص ٣٢ ـ ٣٣ .

الطبقة العاملة تصبح قادرة فقط على تأدية مهامها التاريخية، عندما تسترشد بالنظرية الثورية للماركسية وتقاد من قبل حزب قوي . وان وعي وتنظيم السلوك الثوري هي شروط لازمة من اجل انتصار الطبقة العاملة. فنزاع لينين مع التحريفية الفلسفية يخدم الدفاع عن النظرية الماركسية والمحافظة على نقاوتها وكذلك توطيد وتطوير حزب الطبقة العاملة. وقد اكتسب هذا الصراع منذ البداية اهمية عالمية.

الفصل الثاني

حول البناء والهيكل

يقسم مؤلف لينين «المادية والنقد التجريبي» الى ستة فصول تتضمن ٣٩ فقرة، وتسبق العمل مقدمة وخاتمة خاصة وكذلك اضافة للفقرة الاولى من الفصل الرابع كتبها لينين بعد ذلك في اذار من عام ١٩٠٩. ومثلما يتوضح من عناوين الفصول، تشكل الفصول الثلاثة الاولى عرضا مترابطا ومنسجما. واراد لينين فيها وفي المقدمة ايضا، قبل كل شيء، تعرية الاسس النظرية للنقدية التجريبية ومقارنتها باسس المادية الديالكتيكية «ان هذه المقارنة تبين على طول خط المسائل العرفانية الرجعية التامة الملازمة للمذهب النقدي التجريبي الذي يسير بالاعيب وتحايلات وكلمات جديدة

الاخطاء القديمة للمثالية العرفانية » (١٨).

كما ويظهر من هذه المقارنة، بأنه لا يمكن مبدئيا توحيد الفلسفة الماركسية مع اي مذهب فلسفي اخر، مثلا الوضعية مثلما حاول الماخيون . « ولا يمكن الحديث عن «الجمع» بين المذهب النقدي التجريبي والماركسية. الا في حال الجهل المطلق بصدد ماهية المادية الفلسفية على العموم وبصدد ماهية طريقة ماركس وانجلس الديالكتيكية » (١٩) .

لقد استند لينين في نقده على الاعمال الفلسفية لماركس وانجلس. واعار عناية خاصة لاعمال انجلس « ضد دوهرنك» و «لودفيج فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية». ولم يدافع فقط عن الافكار الاساسية الواردة فيها بل طورها بشكل خلاق، في خلال تحليله المفصل للعلاقة بين المادة والوعي، استنادا الى وجهات نظر القضايا العلمية الحديثة. وفي هذا الصدد وضع لينين تعريفا لمصطلح «المادة» اكتسب منذ ذلك الحين اهمية كلاسيكية. وبرهن على ان القضية الاساسية لكل الفلسفات والمصاغة من قبل انجلس تمتلك قيمتها الكاملة. وعلل بأقناع على ان خلق نظرية معرفة علمية يمكن عند الانطلاق من موقف مادي فقط. هذه النظرية التي تستطيع ان تعطي الاجابة المقنعة على التساؤلات مثل، ما هو مصدر المعرفة؟ ما هي ادوار

---

(١٨) لينين : المادية والنقد التجريبي، المختارات، المجلد ٤، دار التقدم موسكو ١٩٧٨ ص ٤٦٠ .

(١٩) لينين : نفس المصدر السابق ص ٤٦٠ .

الاحساسات والتجربة في عملية المعرفة؟ لماذا يمكن معرفة العالم؟ من اين يتوضح ديالكتيك عملية المعرفة؟ ما هي الحقيقة؟ اي دور تلعبه الممارسة في عملية المعرفة؟

وحلل لينين في الفصل الرابع مكانة النقدية التجريبية في نظام الفلسفة المثالية عموما. واكد في هذا الصدد على ان النقدية التجريبية هي مدرسة معينة من المثالية. وتكمن نقطة انطلاقها في فلسفة كانط، وتتعمق فيها اللاعرفانية والاوهام المثالية الاخرى . وبرهن لينين بأن هذه المدرسة تسير بحزم متواصل صوب المثالية، من حيث ارتباطها بالمدارس المثالية الرجعية) مثلا الفلسفة الكمونية .

وتعرض لينين الى الفلسفة الكمونية في الفقرة الثالثة من الفصل الرابع، وبين بانها حاولت توحيد المثالية الذاتية مع الدين .

وتجري في هذا الفصل معالجة التطور التاريخي للنقدية التجريبية وعلاقتها بالاتجاهات الفلسفية الاخرى ، وبيّن لينين، بان ماخ وافيناريوس واتباعهم المحرفين ، يحاولون دائما الاستناد الى تأرجح ونقص وارتباك واخطاء فلسفات معينة سابقة. واوضح هذا باقناع على فلسفة كانط والاراء الفلسفية لدوهرنغ ودتيزغن. ويتبوأ تقويمه لفلسفة كانط اهمية مبدئية في هذا المجال. ووصف لينين محاولة (التوفيق) بين المادية والمثالية، محاولة تحقيق مساومة بين الاثنتين ـ الامر غير الممكن ـ بمثابة سمة اساسية

لفلسفة كانط. وبسبب موقف كانط المتذبذب انتقد من اليسار (من المادية) ومن اليمين (من المثالية) .

في الفصل الخامس حلل لينين الرابطة بين الماخيين الروس وبين المثالية الفيزيائية. وبيّن مكمن جوهر ازمة الفيزياء الحديثة، وبرهن على ان الاكتشافات العظيمة الجديدة للعلوم الطبيعية تؤكد منذ انعطافة القرن بأسلوب مبدع صحة المادية الديالكتيكية، وتبرهن ايضا على اخطاء المادية الميكانيكية البرجوازية. وتعرض الى ادلة « تلاشي المادة» وبيّن : ليست المادة هي التي تتلاشى، بل التطورات الميكانيكية القديمة البالية، التي لا تتناسب مع المادية الديالكتيكية هي التي يجب ان تتلاشى. وفي سياق تعرضه للمفاهيم المثالية حول نتائج العلوم الطبيعية توصل لينين الى الاستنتاج الهام، وجوب توفر رابطة لا تنفصم، ومثمرة للجانبين، بين المادية الديالكتيكية والعلم الطبيعي. ويتضمن هذا الاستنتاج ايضا امكانية تغيير المادية لصيغتها استنادا الى النتائج الجديدة للبحث العلمي الطبيعي .

وبيّن لينين بان هذا التغير هو ابدا ليس مطلبا تحريفيا للماركسية، بل مطلبا ضروريا وما يهدف اليه الماخيون هو قطعا ليس مثل هذا التحريف . فهدفهم كان يكمن في اغفال جوهر المادية بحجة نقد صيغتها، واخذ الموضوعة الاساسية للفلسفة البرجوازية الرجعية . لكن معرفة المادية الديالكتيكية من قبل علماء الطبيعة هي امر ضروري ايضا. فقد بينت الخبرات، بانه بدون منهج ديالكتيكي يكونون غير قادرين على الحكم الصحيح على نتائج بحوثهم (مذهبيا).

واشار لينين الى ان النتائج الحديثة للفيزياء، لم تـدحض المادية وحسب بل اكدتها بـ eindrucksvoll .

هكذا توصل الى النتيجة: ان الفيزياء المعاصرة هـــي في المخاض، وهي تضع المادية الديالكتيكية. والوضع مؤلم وعدا الكائن الحي القادر على الحياة، يعطي الوضع بلا مناص بعض المنتوجات الميتة، بعض النفايات التي يتعين ارسالهـا الى المزبلة. وفي عداد هذه النفايات، كل المثالية الفيزيائية، كل الفلسفة النقدية التجريبية مـع الرمزيـة التجريبيـة والاحادية التجريبية وما شاكلها» (٢٠).

في الفصل السادس يهدف لينين قبل كـل شيء الى تحديـد النزاع في الحقل الفلسفي بمثابة تعبيـــر عـن الصراع الطبقي الايديولوجي بيـن البروليتاريـــا والبرجوازيـة . وقال : لا يجوز للمـرء ان لا يرى وراء السكولاستيك العرفاني للمذهب النقدي التجريبي صراع الاحزاب في الفلسفة ، هذا الصراع الذي يعبر في آخــر تحليل عـن ميول الطبقات المتعاديـة في المجتمـع المعاصر وعـن ايديولوجيتهـا . فأن الفلسفـة الحديثة حزبيـة كالفلسفـة منذ ألفي سنـة . وان الماديـة والمثاليـة هما حزبان متصارعـان من حيث جوهر الامر المستور بنعـوت جديدة مشعوذة عقائديـة جامدة او باللاحزبيـة القليلـة العقل . وما المثاليـة غيـر شكل متفنن ، منعم للايمانيـة التي تقف على كامل التأهب ، وتملـك منظمـات هائلة ،

---

(٢٠) لينين : نفس المصدر السابق ص ٤٠٤ .

وتواصل التأثيــر ابدا ودائمــا في الجماهير ، مستغلة في صالحهــا اقل تأرجـــح في الفكــر الفلسفي . وان دور المذهب النقدي التجريبي ، دوره الموضوعي ، الطبقـــي ينحصر كليــا في خدمة الايمانيين بخنوع ومذلة ضد المادية على العموم وضد الماديــة التاريخيــة في الخصوص (٢١) .

هكذا يشكل المؤلف كل موحد ومتلاحم . ويشكـل بنــاؤه المنهجي ومقدمته بالنسبة لنــا اهميــة عظيمـــة ايضــا . ففي البدء يوجه الى المقدمــات النظريــة للنقدية التجريبيــة (التي استند اليهــا الماخيون الروس) نقــدا مبدئيــا . وبعد ذلــك يحلل انتقاديــا النقديــة التجريبيــة كنظريــة فلسفيــة في تطورهــا التاريخي وبصلتها مـــع التعاليم الفلسفيــة المعاصرة ومع مسائل تطور العلوم الاخرى (الفيزيــاء) . وجرى دحض افتراضاتهــا وتصوراتهــا وتم تفنيدهــا . وفي الاخيــر يجري التقويم السياســي للنقديــة التجريبيــة وينظم النضــال ضدها في الصراع الطبقي للبروليتاريــا . وقــد سبب التقويـــم السياسي، بشكل خاص ، للنقديــة التجريبيــة كذلــك للمثــاليــة وللتحريفيــة الفلسفيــة عنــد الخصوم كراهيــة شديدة لمؤلف لينين ، بكونه قد مزق حجــاب « اللاحزبيــة » ، و « الحياديــة » التي كانت الفلسفــة البرجوازية تبرقع به تحيزهــا اللامحدود لمصالح راس المال . وتشن الفلسفة البرجوازيــة على « الماديــة والنقد التجريبي » شتــائـــم

---

(٢١) نفس المصدر السابق ص ٤٦١ .

غاضبة لكونه يشكل بالنسبة لكل ممثلي المثاليــة المعاصرة والتحريفيــة الفلسفيــة شوكــة في العين . ولا يمكـــن حساب محاولات تشويهه وامتهانه امام الراي العام العلمي. « الماديــة والنقد التجريبي » يشتم لكونه « من منتوجاته الادبيــة الاكثر استحقاقا للرثاء » لان لينين « تجرأ علــى الخوض في مجال لا يفهم منه حتى القليل » (٢٢) . بهــذه النغمــة والاسلوب يكتب تقريبا ، بدون استثناء ، كـــل الايديولوجيين والفلاسفــة البرجوازيــن عن مؤلف لينين. فالفلسفــة البرجوازيــة لم تستطع لغايــة اليوم « هضم » الماديــة والنقد التجريبي ، سوف لن تتمكــن من ذلــك حتى في المستقبل . فهــو لحد الآن اشد واهـــم مؤلف صدامي ضد الفلسفــة الامبرياليــة الحديثة .

في الجانب التحريفي تجري حديثا محاولة « وضع » الماديــة والنقدية التجريبي » مقابل الاعــمال الفلسفيــة الاخرى للينين ، وبهذه الصورة يختلقــون وجــــــود « تناقضات » في فكــر لينين . « يحاول المحرفون وضــع « الماديــة والنقد التجريبي » مقابــل الاعمــال الاخـــرى للينين ، من اجل ان يفصلوا بهذا الطريـــــق الماديــة عن الديالكتيك ويستعملون لذلــك طريقــة بسيطــة نوعا مــا: يعلنــون توجــد ماديــة في « الماديــة والنقــد التجريبي » لكــن لا يوجــد ديالكتيك ، وفي الدفاتر الفلسفيــة يوجد

---

(٢٢) ادم ب. اولام : البلاشفة، تاريخ ومسيرة الثــورة الشيوعية فــي روسيا كولون ــ برلين ١٩٦٧، ص ٣١٢ (باللغة الالمانية) .

ديالكتيك ، لكن لا توجد مادية . لكنه اصبح معروفا للجميع بأن لينين قد صاغ في « المادية والنقد التجريبي » ديالكتيك العلاقة بين الحقيقة المطلقة والحقيقة النسبية ، بين النظرية والممارسة ، بين الاحساس والتفكير » (٢٣) .

ان طريقة النقد التحريفي ليست غير اصلية وحسب ، بل اضافة الى ذلك فهي تفتقد ذاتها الى فهم تاريخي اولي . حيث انها لم تغفل الظروف التاريخية فقط ، الظروف التي كتب فيها لينين مؤلفه (التي يتوضح منها الابراز المعين لهذه اللهجة او تلك للفلسفة الماركسية) . بل يتم تجاهل الطبيعة التاريخية لعملية المعرفة بصورة مجردة تماما ، لان لينين توجه في الاوقات اللاحقة وفي ظل ظروف اخرى وباسلوب خاص نحو مشاكل اخرى للفلسفة الماركسية .، وبذلك توصل ايضا الى معارف اكملت وأغنت و (وضحت) تصوراته لعام ١٩٠٨ ، هذه الامور تثير عجب البعض وتقدم لهم المناسبة لتقديم الملاحظات الفارغة ، لكونهم لا يمتلكون اية فكرة عن العملية التاريخية للمعرفة . ان هذه الطريقة في النقد تذكر بنيهيليي التاريخ، الذين يذمون الماضي لكونه لم يحل مهام الحاضر والمستقبل .

---

(٢٣) نارسكي : حيوية مؤلف لينين «المادية والنقد التجريبي» برلين ١٩٧٣، ص ٢٤/٢٥ باللغة الالمانية .

« المادية والنقد التجريبي » مؤلف صدامي نضالي ضد الفلسفة البرجوازية باسمى معنى للكلمة . مارس لينين فيه نقدا ضاريا ضد الفلسفة المثالية، وضد كل محاولات ممثلي الاشتراكية الديمقراطية في التقرب الى الماركسية من خلال استعمال مصطلحاتها . وفي هذا الصدد نذكر مرة اخرى برسالة لينين الى غوركي المؤرخة في ٢٥ /١٩٠٨/٢ . تبين هذه الرسالة حماسة لينين في خوض الصراع النظري وشدة غضبه على الذين يقفون بتهور تجاه النظرية الثورية للطبقة العاملة . ولقد قاد هذا الغضب قلم لينين احيانا . ولم يوفر بالتعابير العنيفة عندما يريد ان يبين لبوغدانوف وبازاروف والاخريين الى اي مستنقع انحدروا بأرائهم . وقد حدث جراء ذلك اختلاف بسيط بين لينين واخته آنا . آنا ـ اوليونوفا ـ جليسروفا كانت تقوم في موسكو بمهمة الاعمال التحضيرية لطبع المؤلف ومن اجل نشره بسرعة ، وقد وجهت اللوم لاخيها بسبب اللغة الحادة والتسمته ان يتجنب بعضا منها » أنا الآن اقرا كتابك ... وكلما أقرأ اكثر ازداد متعة ، لكن يجب ان تزيل بعض الشتائم او تعدلها .. والله يافولوديك ، انك ذاكر كمية كبيرة منها » (٢٤) . وبسبب الرقابة

---

(٢٤) في آنا الى فلاديمير في جنيف، موسكو، ١٥ تشرين ثاني ١٩٠٨ في: يوم عادي من ايام عائلة اوليانوف، مراسلات، برلين ١٩٧٣ ، ص ١٦٥ باللغة الالمانية .

القيصريـة يجب ان يغير البعض او يحور . وكتبت آنـا في نفس الرسالة ! استنادا الى اشارتـك بدلت « الكهنوتية» ب « الايمانيـة » ، وبدلا عن « الكهان » وضعت«اللاهوتين» وحسب رأيي ينبغي ازالة مثل هذه الاشياء والا سوف لن يعبـر الرقابة » (٢٥) .

هذه الملاحظـة يجـب ان يأخذها كل قاريء بعين الاعتبـار : لينيـن كـان مرغمـا علـى الكتابـة فـي ظـل الظروف الجائرة للرقابـة القيصريـة . ولانه يجب عليه ان يحسب حساب سذاجـة الرقابة ، اصبـح عمله ليس بسيطـا .

---

(٢٥) نفس المصدر السابق .

الفصل الثالث

حول بعض الافكار الاساسية

عندما يطرح السؤال عن ماهية الافكار الحاسمة لعمل لينين ـ الخيط الاحمر الذي يخترق مجمل العمل ـ فستكون الاجابة ليست بسيطة ، لانه لا يوجد بالكاد اي حقل من حقول الفلسفة الماركسية لم يتطرق اليه لينين بهذه الصورة اوَ تلك ، اي لم يدافع عنه ضد هجمات الفلسفة البرجوازية والتحريفية ، ولم يطوره بابداع . ومع ذلك سنحاول ابراز بعض الافكار الاساسية وتبيان حيويتها ، لا سيما ، في النضال ضد الفلسفة الامبريالية الراهنة والتحريفية الفلسفية المعاصرة .

١ ـ المادية والمثالية اتجاهان فلسفيان لا يتوافقان .

ان الفكرة المحددة والحاسمة للمؤلف تكمن في

البرهان المقنع ، بانه في حقل الفلسفة ، بغض النظر عن كل المعارف والقضايا الجديدة ، لا يمكن تجاوز التناقض الحاسم بين المادية والمثالية ، وعند الامكان تأسيس اتجاه اساسي ثالث في الفلسفة . فالقضية الاساسية للفلسفة لا يمكن ان تلغى من العالم. وينطبق هذا ايضا على الاجابات التي تقدمها التعاليم الفلسفية في الاتجاهين الرئيسيين المادية والمثالية . وبرهن لينين على ان كل المحاولات التي تهدف الى « القفز » على التناقض بين المادية والمثالية ومنعه ، سيصيبها الفشل ـ طال الزمن ام قصر ، وسيكون مصيرها الانحدار الى مستنقع المثالية . وعرض هذا البرهان على التنسيق المبدئي لافيناريوس . حيث كان هذا الاخير يهدف من خلال « تنسيقه المبدئي » الى تجاوز التناقض بين المثالية والمادية . فقد ادعى بوجود رابطة لا تنفصم بين فاعل المعرفة (الانسان) وبين موضوع المعرفة . وهذه الرابطة عميقة بالشكل الذي يجعل المرء لا يفرق بتبعية الواحد للاخر ، لا سيما ولا اية تبعية للفاعل المدرك للموضوع . لقد صمم افيناريوس مثل هذا الاسلوب وتوصل الى التصنيف التالي : الفاعل ، الأنا ، تشكل المحصلة الحاسمة ، « العضو المركزي » ، والمحيط الخارجي خلاف ذلك العضو المضاد . كذا ، اعطى افيناريوس في الاخر الاولوية للفاعل ، للأنا ، نسبة الى موضوع المعرفة، العالم الخارجي . وتذهب تصوراته الى ان المرء لا يمكن ان يفكر بوجود حقيقة خارج الانسان ، بدون ان يؤخذ

منهـا في نفس الوقت الوعـي .

« ... أنـا و « البيئة » همـا ليسا في نفس المعنى « مـا وجدناه » ، بل ايضـا نجدهمـا معا ، ان اي وصف كامل « لما وجدناه » (للمعطى) لا يمكنه ان يتضمـن البيئة بدون أنـا مـا ، الذي هذه البيئة بيئته ـ على الاقل ذلك الأنـا الذي يصف ما وجدنـاه هذا » (٢٦) . بكلمـات اخرى ، تكـون اذا فـي النهايـة الاخيرة التجربة او الوعي لايـة « أنـا » (لفرد انساني) أوليـة نسبة الى البيئة. وهذه مثاليـة صرفـة ، وبالذات مثاليـة ذاتيـة .وهذا هـو المحتوى الجوهري لما يسمى بالتنسيق المبدئـي لافيناريوس ، الذي يراد بـه تصفيـة التناقض بين المادية والمثالية ، مثلما ادعى الماخيون الروس .

لقد عارض لينيـن هذا التركيب الذاتي المثالـي . وبيّن في البدايـة بأن افكـار افيناريوس ليست جديـدة او اصليـة ابدا ، بل انهـا تعـود كاملـة الـى الفلسفـة الذاتيـة ـ المثاليـة لفخته (٢٧) . وبعـد ذلـك طـرح سؤالين حاسميـن : هل وجدت الطبيعـة قبل الانسـان؟ هل يفكـر الانسان بواسطـة الدمـاغ ؟ .

ان الاجابة العلميـة عن هذيـن السؤاليـن تبيـن

---

(٢٦) ريشارد افيناريوس : ملاحظات حول مصطلح موضوع الفلسفة في: المجلة العقلية للفلسفة العلمية، المجلد ١٨، ١٨٩٤، ص ١٤٦ باللغـة الالمانيـة .

(٢٧) لينين : المادية والنقد التجريبي، مصدر سابق، ص ٧٩ .

بوضوح تفاهة واخطاء التنسيق المبدئي لافيناريوس. وبعد هذا البرهان ، الذي يعرض بكل وضوح عدم امكانية ازالة التناقض الاساسي بين المادية والمثالية بمساعدة التنسيق المبدئي ، يبين لينين العواقب السخيفة التي يصل اليها المرء ، يصل اليها حتما ، عندما يصر على هذه التراكيب المثالية .

لقد ادرك احد تلامذة افيناريوس ، المدعو فيللي، الصعوبات التي يجابهها المرء عندما يصر على التنسيق المبدئي : « كيف كان العالم قبل وجود الانسان ؟ يسأل فيللي ، ويجيب في البدء بالتوافق مع افيناريوس : لننتقل فكريا الى الماضي ، ولكنه يقول بعد ذلك ، انه ليس من الالزامي اطلاقا ان نفهم التجربة من كل بد بمعنى تجربة الانسان لانه يجب اعتبار عالم الحيوانات – حتى وان كان المقصود دودة تافهة للغاية – كالناس البدائيين ، ما دمنا نأخذ حياة الحيوانات بالارتباط مع التجربة العامة. وهكذا ، كانت الارض قبل الانسان « تجربة » دودة قامت بوظيفة « العضو المركزي » لاجل انقاذ « تنسيق » افيناريوس وفلسفة افيناريوس ! فلا غرابة اذا كان بتسولدت قد حاول ان يقي نفسه من مثل هذه الحاكمة التي هي ليست قمة السخافة وحسب (تعزى الى الدودة فكرة عن الارض تتناسب مع نظريات الجيولوجيين) ، بل لا تساعد فيلسوفنا في شيء ، لان الارض وجدت ، لا قبل الانسان وحسب ، بل ايضا قبل ، اية كائنات حية

علـى العموم (٢٨) .

وبرهـن لينيـن ايضـا على نظريـة سوفاروف حول « الواقعيـة » عدم امكانيـة ازالة التناقض بين الماديـة والمثاليـة في العالم . سوفاروف قد تجنـب مصطلحات « الماديـة » و«المثاليـة» وسمى وجهـة نظره الفلسفيـة بـ « الواقعيـة » لا غيـر . ماذا يقصـد بهذه الواقعيـة؟ سوفاروف يقصـد بأن الاعتراف بالواقع ، بالوجـود البسيط للاشياء والظواهـر ، يكفي جدا . اما النزاع حول فيمـا اذا كانت الاشيـاء والظـواهـر تنوجد خـارج الوعي ام لا ! فهـو أمـر لا يثير الاهتمـام . يكفي التأكيـد على ان « الاشيـاء هي هنـا » ، تنوجـد في الواقـع، في الحقيقـة . وهذه هي وجهة نظـر ليست ماديـة او مثاليـة ، بل واقعيـة . ويشيـر سوفاروف الى مـا يسمى بالفهم الانساني السليم ، الذي ينطلق من انالاشياء والظواهـر تنوجد واقعيـا . تظهـر هذه الادلة لاول وهلة معقولـة . لكـن فقط « لاول وهلـة » ، اي عند الملاحظة السطحيـة ، ويكفـي « عيبهـا » في ان المثاليـة الموضوعية والفلسفـة الكاثولوكيـة الحديثة يستطيعـان ان يتفقـا مع هـذه « الواقعيـة » . انهـا تمسح تمامـا التناقض بيـن العلم والايمـان . فالمثاليـة الموضوعيـة (مثلا فلسفة هيجل) وكذلك الفلسفـة الكاثولوكيـة تنطلقان من ان قبل كل وجـود واقعي وجدت « فكـرة مطلقـة » غامضـة

---

(٢٨) نفس المصدر السابق ص ٩٦ .

او « الـه » . وهـــذه الارواح الغامضـــة خلقت فـي يـوم مـن الايـــام العالم بظواهـره المتشعبـــة فـــي الطبيعـة والمجتمع ، الاشيـاء والظواهر الواقعيـة . اذا الاشيـاء المخلوقـة لل « عالم الواقعي » من قبل الفكـرة المطلقـة او من قبل الالـه تنوجـد « خارج » وعي الانسان ويمكـن للانسان ان يدركهـا ويحسهـا ويتعرف عليهـا .

تبعـا لذلـك يستطيع اللاهوتي والمثالي الموضوعي ، بدون ان يحمـلا اي شـك ، المشاركـة في موقف الواقعيّة الفلسفيـة .

لكـن المقدمـات المذهبيـة لهذا الموقف تختلف مـن الاساس عـن مقدمـات موقف العلم والماديـة . فعندمـا تتكلم اللاهوتيـة او المثالّيـة الموضوعيـة عن واقعيــة الاشيـاء ، عندمـا يشيران الى حقيقـة العالم الخارجي، عندئذ يتعلق الامر اساســا بشبه واقعيـة ، ليس بخصوص العالم المادي ذاته ، بل بمنتوج احدى الارواح . في الاخر تؤخذ الطبيعـة والمجتمـع بمثابة « مخلوقات » لفكـــرة « مغروســة » منذ الماضي السحيق ، لكـن من الذي غرس هنـاك الفكرة (الاله .. الخ) . لا يوجـد ســوى الناس ذاتهم ، سوى نشاطهم الفكري ، الذي خلق هذه الصورة الفنطازيـة . ان الروح المفترضة ، التـي زعمـا خلقــت العالم ، ليســت سوى منتوج مـــن رؤوس النــــاس ، نتيجـة للفنطازيـة ! ، لكـن بذلـك ينكشف موقف الواقعية الفلسفيـة كورقـة التيـن ، التي ينبغي بهـا تغطية العري الذاتي ـ المثالي للاهوتيـة او للمثاليـة الموضوعية . فـي

نفس الوقت يمكـن هذا الموقف المثاليـة من السيـر تحت مظلـة واحدة مـع العلم ، لان العلم والمادية ينطلقـان طبعا من واقعيـة العالم الموضوعي ، فقط مع « فرق بسيط » ، وهو ان لا تؤخذ ايـة ارواح ، والهة ، وملائكة الرحمـة او الاساطيـر الاخرى المقدمـات .

يتجلى من هذه المسألة ، بأن ما يسمى بالفهـم الانساني السليـم او الوعي الاعتيادي ليس قاعـدة امينـة للبت في القضايـا المذهبيـة . ان الحاجـة تكمـن فـي وعي علمي، مـن اجل التحديد الصحيـح للتوجه بخصوص القضايا الاساسيـة للحياة وللنظريـة . وهـذه الحقيقـة عللهـا لينـن في عمله « ما العمل ؟ » بالتفصيل. ان الفهم الانساني السليـم هـو بلا شـك ، مثلمـا اكـد انجلس « رفيق محترم » لكـن فقط « في مجال الجدران الاربعة لبيته » ، وهذا يعنـي ، انـه يبقـى في عالم التجربـة محددا بتجربة الفرد ، ولذلـك يلاقي « مغامرات عجيبـة جدا حالمـا يتجرأ بالدخـول الى عالم البحث » (٢٩) .

بخصوص مشكلتنـا يعني هذا ، بانه من خلال الفهم الانساني فقط او من خلال « الواقعية الساذجة » لا يمكـن توضيح فيمـا اذا كانت الواقعيـة المأخوذة عـن العالـم الخارجي هي ماديـة او هي مخلوق لاي شيطـان او اله. وبالرغم من الموقف المغري « للواقعية الفلسفية » الذي يظهر

---

(٢٩) فريدرك انجلس : ضد دوهرنك، في مؤلفات ماركس ـ انجلـس، المجلد ٢٠ ص ٢١ باللغة الالمانية .

لاول وهلة ، الا انها لا تستطيع التمييز بأمانة بين المادية والمثالية . ولذلك توجه لينين بحدة ضد هذا الموقف ، عموما ضد تسمية « الواقعية » في الفلسفة. « وبهذا المعنى استعمل انا ، اثر انجلس ، كلمة « المادية » فقط واحسب هذا التعبير التعبير الصحيح الوحيد ، وخاصة لان كلمة « الواقعية » قد لوثها الوضعيون وسائر المخبصين الذين يتذبذبون بين المادية والمثالية» (٣٠) . وفي موقع آخر لفتّ الواقعية كخبيص هش يرثى له . « حزب الوسط الحقير في الفلسفة الذي يخلط في كل مسألة على حدة بين الاتجاهين المادي والمثالي . وليست محاولات التخلص من هذين التيارين الاساسيين في الفلسفة سوى ضرب من التدجيل الداعي الحي التوفيق »(٣١) . وكشف لينين الجهود الميئوس منها للاعرفانية في التوسط بين المادية والمثالية . وبيّن بأخذ الفلسفة الكانطية كمثال ،انها لاقت انتقادا من قبل المادية والمثالية معا ، وفي الاخر صبت في المثالية . « ان السمة الاساسية التي تختص بها فلسفة كانط هي التوفيق بين المادية والمثالية، والمساومة بين هذه وتلك ، الجمع في نظام واحد بين اتجاهات فلسفية مختلفة متضادة ، فعندما يسلم كانط بأن تصوراتنا يطابقها شيء ما خارج عنّا ، شي ما

---

(٣٠) لينين، مصدر سابق «المادية والنقد التجريبي» ص ٧٠ .

(٣١) نفس المصدر السابق ص ٤٣٨ .

في ذاته ، فان كانط هو مادي . وعندما يعلن كانط ان هذا الشيء في ذاته مستحيل على المعرفة ، متعال ، غيبي ، فانه يبرز هنا كمثالي ... وبسبب هذا التذبذب ، ناضل الماديون المنسجمون والمثاليون المنسجمون على السواء ... ضد كانط بلا رحمة ولا هوادة : فأن الماديين قد راوا خطيئة كانط في مثاليته ، ودحضوا سمات نظامه المثالية ، واكدوا على امكان معرفة الشيء في ذاته وعلى كونه غير غيبي وعلى عدم وجود اي فرق مبدئي بينه وبين الظاهرة ، وضرورة استخلاص السببية ، وخلافها ، لا من قوانين الفكر القبلية a Priori بل في الواقع الموضوعي . اما اللاعرفانيون والمثاليون فقد راوا خطيئة كانط في تسليمه بالشيء في ذاته ، بوصفه تنازلا في صالح المادية او « الواقعية » او « الواقعية الساذجة » (٣٢) . وكتب ايضا : وهكذا سارت كل مدرسة فورباخ وماركس وانجلس من كانط نحو اليسار ، نحو الانكار التام لكل مثالية ولكل لاعرفانية . اما اصحابنا الماخيون ، فقد ساروا وراء الاتجاه الرجعي في الفلسفة ، وراء ماخ وافيناريوس .... ويقينا ان السير وراء اي كان من الرجعيين الفكريين هو حق مقدس لكل مواطن وعلى كل مثقف . ولكن اذا عمد اولئك الذين قطعوا تماما كل صلة لهم بأسس الماركسية بالذات في الفلسفة ، وشرعوا فيما بعد

---

(٣٢) نفس المصدر السابق ص ٢١١ .

يلفون ، ويدورون ، ويشوشون ، ويراوغون ، ويؤكدون انهم « هم ايضا ماركسيون في الفلسفة ، انهم موافقون « تقريبا » مع ماركس ، وانهم لم يفعلوا غير ان « اكملو » ه قليلا جدا ـ فان هذا يسمى مشهدية غير مستطابة ابدا (٣٣) .

تجري مهاجمة المادية المنسجمة ، التي طورها لينين ، من قبل التيارات الغنية التأثير للفلسفة الامبريالية الراهنة وكذلك من قبل التحريفية الفلسفية المعاصرة . فهم ينكرون القضية الاساسية للفلسفة ويعلنون ان الاختلاف بين المادية والمثالية ليس جوهريا او حتى غير مناسب . وسمى احد انصار « النظرية النقدية » لمدرسة فرانكفورت، اوسكار نكت ، هذا الاختلاف ب « آلية » مجردة من المثالية والمادية ، التي غلقت منذ لينين تحليل المحتوى الفلسفي للنظريات (٣٤) . وايضا Petjovic احد دعاة ما يسمى بفلسفة الممارسة ، يذم « التقسيم الآلي لكل الفلسفات الى مثالية ومادية » وسماها بكل بساطة « ستالينية » كما لو ان ستالين أوجدها (٣٥) .

---

(٣٣) نفس المصدر السابق ص ٢٦٠ .

(٣٤) اوسكار نكت، الماركسية كعلم تفويضي، فرانكفورت ـ مارس، ١٩٦٩ ص ١٠ باللغة الالمانية .

(٣٥) Gajo, Petrovic : الممارسة الثورية ، الماركسية اليوغسلافية الراهنة، فرايبورك ١٩٦٩، ص ١٠ باللغة الالمانية .

ان القضية الاساسية للفلسفة لم تقتنص من الهواء ولا هي « اكتشاف خبيث » للماركسيين ، مثلما يدعي الخصوم ، بل تنمو بتواصل من عملية الحياة العملية للناس وللعلوم وتخص جانبا هاما من علاقة الناس بالعالم الموضوعي . فالناس يرتبطون اثناء عملية الانتاج المادي والنشاط العملي ـ السياسي بصور متعددة بالطبيعة وبعلاقات اجتماعية . وتحصر دائرة نظرهم المجال المباشر للنشاط الملموس والطبيعة والمجتمع « ككل » . ومن احدى المهام الاساسية للفلسفة هي تمكين الناس من فهم العدد الكبير من الاشياء والظواهر المحيطة بهم ، بروابطها الداخلية . عليها ان تعطيهم نظرية صحيحة عن العالم ، ان تمكنهم من ادراك علاقتهم بالطبيعة وموقعهم في المجتمع . من هذه المهمة ينتج بالضرورة وجوب اجابة الفلسفة اولا على القضية الاساسية : من اي مصدر نغرف نحن في الواقع تصوراتنا ووجهات نظرنا عن العالم ؟ وبهذا السؤال يتعلق توضيح العلاقة بين المادة والوعي ، الموضوع الذي شملته القضية الاساسية للفلسفة .

٢ ـ مصطلح المادة الماركسي :

تكمن فكرة اساسية اخرى في مؤلف لينين وهي البرهنة على عدم امكانية شيخوخة مصطلح المادة الماركسي . فقد كشف لينين جوهر « ازمة الفيزياء »التي

جرى الحديث عنهـا في كل مكـان ، وبيّن لعلمـاء الطبيعة المخرج من الورطـة الفكريـة التي وقعـوا فيهـا جـراء الحكـم الخاطىء على الثورة في الفيزياء . فمثلمـا ذكرنـا سابقـا توصل بعض الفيزياويين ارتباطـا باكتشافـات اشعـة رونتغـن (١٨٩٥) والنشاط الاشعاعي (١٨٩٦) والالكترون (١٨٩٧) ووضـع النظريـة الكوانتية (١٩٠٠) والنظريـة النسبيـة (١٩٠٥) والاكتشافات الاخرى التـي طبعت ذلـك العصر ، الى ان المـادة « تتلاشى » ، وتحطمت صورة العالم الماديـة ، التي كـان يتمسك بهـا كل عالـم طبيعي بشكل تقليـدي وعضوي . واستغل ممثلو التحريفية الفلسفيـة في المانيـا والنمسا وروسيـا هذه الوضعية، من اجل ان يعلنـوا : لا يوجـد اي معنى مطلقـا فـي افتراض وجـود واقعيـة موضوعيـة خارج الوعـي الانساني ، على المرء اكثر من ذلـك ان يربط وجود العالم الخارجي بالاحساسات ، بالادراكات ، بالاراء الفرديـة القابلـة للفحص ايجابيـا .

بمعارضة حادة لهذا التسليـم التحريفي للموقف الاساسي المادي ، برهـن لينين ، بأن ليست صورة العالم الماديـة هي التي تحطمت ، بل تفسيرهـا الميكانيكـي ، وكـان مصيبا تمامـا . وقد بيّـن التطور الحديث بـأن المادية الميكانيكيـة ايضا ـ لا يوجـد داعي للكلام عـن المثالية ـ هي غيـر قادرة على تعميم النتائج الاكثر حداثة للعلم . ليست المادة التي تتلاشى ، تنص موضوعة لينيـن، بل التصورات القديمـة والباليـة حول المادة ، مثلا المادة

تنوجـد فقط بصيغـة ملموسـة وتمتلـك خـواص الاستمراريـة والوزن وملء الفـراغ المـركـز واللانفاذية. « المادة تتلاشى » ان هذا يعنـي زوال ذلـك الحد الـذي كنـا نعرف المادة اليه حتى الآن ، وان معرفتنا تمضي الى اعمق ، كذلـك تزول حواص المادة التي كانت تبدو من قبل مطلقـة ، ثابتة اولية (اللانفاذيـة ، الاستمراريـة ، الكتلة .. الخ) والتي تتكشف الآن بوصفهـا نسبية ملازمة لبعض حالات المادة فقط . لان « الخاصة » الوحيـدة للمادة التي ترتبط الماديـة الفلسفيـة بالاعتراف بها انمـا هي خاصـة ان تكـون واقعيـة موضوعية . ان توجـد خارج وعينـا (٣٦) . لقـد صاغ لينيـن تعريف المـادة الكلاسيكي ، مرتكزا على النتائج الحديثة للعلوم ، الـذي يمتلـك سريانه gultiskeit المطلق الى الحد الذي لا تبرز فيه « خاصـة » اخرى غيـر ان تكـون واقعيـة ، موجودة خارج وعينـا . وكتب : « ان المادة مقولة فلسفيـة للاشارة الى الواقع الموضوعي الذي يعطي للانسان في احساساته، والذي تستنسخه ، تصوره ، تعكسه احساساتنا ، وهـو موجود بصورة مستقلـة عنهـا » (٣٧) . يتضمـن هـذا التعريف في نفس الوقت تحديدا للوعي . فالوعي بجوهره هـو انعكاس مثالي (نموذجي) للواقع الموضوعي فـي الفهم الانساني . ويحسب هذا التعريف حساب مبدأ عدم نضوب

---

(٣٦) لينين المادية والنقد التجريبي ص ٢٣٥ .

(٣٧) نفس المصدر السابق ص ١٦٥ .

المادة ، الذي وضعه لينين عند تعميم الاعمال العلمية لـ Becquerels وبيير وماري كوري ، رونتغن ، بلانك ورتوفورد . لا توجد اية حدود مطلقة للطبيعة ـ لا في عالم الميكرو ولا في عالم الماكرو ـ « ان الالكترون لا ينضب مثله مثل الذرة » (٣٨) .

ليس الفيزياء الحديثة فقط هي التي تؤكد صحة صورة العالم المادية ، بل ايضا الرياضيات والفلسفة وعلم النفس والبايولوجي والعلوم الاخرى ، بحيث ان القضية تحسم اليوم بخصوص صورة العالم العلمية الطبيعية من قبل قسم كبير من العلماء ، وفي الدول الرأسمالية أيضا ، لصالح المادية . لكن في مجال العلوم الاجتماعية، وفي مجال الايديولوجية يقوم الايديولوجيون البرجوازيون بكل شيء من اجل صد التأثير المتنامي للمادية الديالكتيكية . ومنذ وقت طويل استعمل الايديولوجيون الامبرياليون، والاصلاحيون الاجتماعيون والمحرضون ذريعة « التعددية المذهبية » . وجاء في احد منشورات « المركز الاتحادي للتأهيل السياسي » في المانيا الاتحادية ما يلي : من خلال تعدد امكانيات الاتصال مع العالم كله يتعرف الانسان في هذه الايام على عدد كبير من الاديان والمذاهب ، التي تعرض له بمثابة امكانياته الخاصة (٣٩) . وتمجد التحريفية

---

(٣٨) نفس المصدر السابق ص ٣٣٧ .

(٣٩) Standinger : التاهيل السياسي في دولة تعددية، في السياسة والتاريخ، ملحق للمجلة الاسبوعية«البرلمان» ١٩٦٣، الدفتر ٣٧ ، ص ١٣ باللغة الالمانية .

الراهنــة هذه التعدديــة بهـــــدف Unterwandevn الاشتراكية . وتوصل « دهـاة » ايديولوجي راس المـال الاحتكاري في هذا الصدد الـى تفسيـر التعددية المذهبية المزعومة بوصفهـا التعبيـر الواضح عن الثروة الفكريـة في الدول الراسماليـة .

كيف هـو الحال في الواقع بالعـدد اللامحـدود المزعوم للمذاهب ، وبالاستحالة المزعومة لفلسفة موحدة ؟ عنـد النظر عن كثب يتبيـن ، بأن هذه الافتراضات تفتقد الى اي اساس موضوعي ، وذلـك قبل كل شيء لسببين:
١) لا توجـد ايـة فلسفـة محايدة طبقيـا . فكل فلسفة تعبـر ، بهـذه الصورة او تلـك ، بشكل مكشوف او مقنع، دائمـا عـن مصالـح طبقـة معينة . ومن هذا ينتج ، بأنه لا يمكـن ان ينوجـد في وقتنـا هذا تعاليم فلسفيـة اساسيـة كثيرة كمـا يشاء . تطابقـا مع الطبقتيـن الرئيسيتيـن في عصرنـا (الطبقة العاملة والبرجوازية) توجـد في الآخر نظريتان فلسفيتان ممكنتان ــ الفلسفة الموحـدة للطبقـة العاملة والفلسفـة المقسمة الى انواع عديدة ، التي تتمايز استنادا الـى الفئـات الاجتماعيـة المختلفـة ، فلسفـة البرجوازيـة المحكوم عليها بالانهيار . اذا بالتالـي لا توجـد ابدا امـام الشخص « امكانيـات خاصـة » لتبني هذه الفلسفـة او تلك .

لكن ليس فقط الطبيعـة الطبقيـة لاي فلسفـة تدحض هذار التعدديـة الفلسفيـة . فمن موضوع ومهـام ووظائف العلم الفلسفي ، بأختصار من جوهره ، ينتـج عدم

امكانيــة وجــود مذاهب متعددة . وهذا يعني تبعا لذلك:
٢) تقــود الاجابة على القضيــة الاساسيــة للفلسفــة بالتالــي بكل التيارات والمدارس الفلسفيــة الى الاتجاهين الاساسيين المذكورين المادية ـ المثاليــة . ولا يترك الامر لاي فيلسوف ، فيمــا اذا كــان يريــد ان يعطي الاجابــة عــن القضية الاساسيــة الحاسمــة ام لا . فما دام الامر يتعلق بفلسفــة واحدة او بمذهب واحد ، ينبغي اعطــاء الاجابة . ولا يهم فيمــا اذا سيذكــر او لا يذكــر مــن المقدمــات النظريــة لذلــك النظــام الفلسفــي فممثلــو الوضعيــة والوصفية الجديدة مثلا يمتنعون بحزم في تقبل القضية الاساسيــة للفلسفــة عموما . انهــم يودون جعلها « نزاع من اجل لحيــة القيصر » . لكــن في الواقع هــم ينطلقــون جميعــا من المقدمــة المذهبيــة الصامتة ، ان الاشياء والظواهــر تتوجــد فقط لانه يمكــن احساسهــا وادراكــهــا ، يمكــن ان « تركــب ايجابيــا » فــي التجربة الانسانيــة . وهذا الامر يميز الوصفيــة بمثابــة فلسفــة مثاليــة اكثر واكثر . وهنــا نجد اجابتهــا علــى القضية الاساسيــة للفلسفــة ، التي تحــاول دائمــا تغطيتهــا .

لقد تبيــن اذا ، ان موضوعــة التعددية المذهبيــة لا تستطيع الصمود امام النقــد الجدي : « من بين انواع المثاليــة الفلسفيــة .. آلاف الاتجاهات الممكنــة ، ومن الممكــن دائــما صنع اتجاه (واحــد بعــد الالف) ومــن الممكــن ان يبدو لصاحب مثل هذا النظام الواحــد بعــد

الالف (مثـلا نظام الاحاديـة التجريبيـة) الفرق بيـن نظامه والانظمـة الباقيـة هامـا . امـا من وجهة نظـر المادية ، فـان هذه الفوارق ليست ذات شأن اطلاقـا . فالمهم هو نقطـة الانطلاق (٤٠) . ان موضوعـة تعدديـة المذاهب ليست اكثـر من محاولـة سمجـة ، لتغطيـة الطبيعـة الطبقيـة والتناقض الاساسي بيـن الاتجاهيـن الرئيسيين في الفلسفـة . وفيمـا يخص ذريعـة « الثروة الفكريـة » فالامـر يشمل الفلسفـة كمـا يشمل اي علم آخر : توجـد حقيقـة واحدة ، لكـن يوجـد مخطئون كثيرون . وفـي الفلسفـة تدعـم عرض الحقيقـة منذ ما يقارب الـ ١٣٠ عامـا من قبل الماديـة الديالكتيكية والمادية التاريخيـة . ومن الحجج المحبوبة لدى الخصوم ، هي ان الماديـة الديالكتيكيـة قـد قلصت دور الوعي والنظرية من خلال اعترافهـا بأولويـة المادة . عكس ذلك تماما هو الامر الصحيح . ليست الماديـة الديالكتيكية ، بل المثاليـة هي التي قلصت وحددت دور الوعي بشكل متواصل ، من حيث انهـا اربكت افكـار الانسان بمختلف التصورات الغامضة الممكنـة ، وأفتت بقدسيـة العلاقـات الاستغلاليـة الامبرياليـة القائمة ، التي يجب ان تتغيـر هي بالذات مـن خلال النشاط الثوري الواعي للطبقـة العاملة وحلفائها بمغزى التقدم الاجتمـاعي .

ان الاجابة الماديـة على القضيـة الاساسية للفلسفة

---

(٤٠) لينين، المادية والنقد التجريبي، مصدر سابق ص ٣٤٥ .

لا تقلص الدور النشط للوعي وللافكار والنظريات في عملية التطور الاجتماعية . ان المادي لينين الذي قال « بأن العالم المدرك لا يلبي حاجات الناس ، والانسان قرر تغييره من خلال تصرفه » . وتبعا لذلك يجب ملاحظة : وعي الانسان لا يعكس العالم الموضوعي فقط ، بل يخلقه ايضا (٤١) .

ماذا يفهم من هذا ؟ لقد أراد لينين ان يبرز ، بأن وعي الانسان يلعب دورا نشطا جدا في عملية الحياة العملية . انه لا يعكس العالم الخارجي فقط ، بل يؤثر على الممارسة الاجتماعية ، على الظروف التي ابرزته ، وبذلك يساهم في تغيير الظروف وصياغة وخلق ظروف جديدة تماما للمحيط الخارجي الطبيعي والاجتماعي للناس .

هكذا تبدلت الحياة من الاساس على كرتنا الارضية بموجب الافكار الماركسية ـ اللينينية ، ومن خلال نتائج النضال الثوري للطبقة العاملة وحلفائها في الخمسين سنة الماضية . فقد اقيمت في الدول الاشتراكية علاقات اجتماعية جديدة تماما ، علاقات انسانية حقيقية ، التي لا يمكن التفكير بها بدون النشاط الواعي والخلاق للشغيلة بقيادة الحزب الماركسي ـ اللينيني ، اي بدون تطبيق النظرية . واصبح وعي

---

(٤١) لينين : حول علم المنطق الهيغلي، في المؤلفات، المجلد ٣٨، ص ٢٠٣ باللغة الالمانية .

الناس ، الحياة الفكرية ، القوة المحركة للتطور الاجتماعي في الحركة العمالية الثورية .

ان هذا الدور النشط والخلاق للنظرية وللوعي لا يمكن حصره تماما من وجهة نظر القضية الاساسية للفلسفة فقط . بالذات في « المادية والنقد التجريبي » يشير لينين الى ان القضية الاساسية للفلسفة تأخذ بالاعتبار علاقة الانسان بالعالم الموضوعي فقط من خلال جانب معين ، وذلك « فقط في حدود المسألة العرفانية الاساسية المتعلقة بما يصح اعتباره الاولي وما يصح اعتباره الثانوي » (٤٢) . وفي هذه العلاقة تتواجه المادة والوعي . وكتب لينين : « وانه لمن الخطأ الفادح اللجوء فيما وراء هذه الحدود الى التضاد بين المادة والروح، بين الفيزياوي والنفسي ، بوصفه تضادا مطلقا (٤٣) .

عند المواجهة بين المادة والوعي يغض النظر بتعمد تام عن التفاعل بين المادي والمثالي ، مثلا ما (معطى) في الممارسة الاجتماعية . ففي الممارسة الاجتماعية يتشابك المادي والمثالي بوثوق ، ويؤثر احدهما على الاخر، وفي النهاية تعزى الاولوية للمادة .

٣ ـ نظرية الانعكاس الماركسية

دافع لينين في مؤلفه بأصرار عن نظرية الانعكاس

---

(٤٢) لينين : المادية والنقد التجريبي، مصدر سابق ص ١٨٥ .

(٤٣) نفس المصدر السابق ص ٣١٦ .

الماركسية وطورها . فقد برهن على ان الصيغ الحسية والعقلانية للمعرفة تعرض استنادا الى جوهرها صورا مثالية للواقع الموضوعي . ان هذه الاختبارات النظرية المعرفية ليست ذات اهمية فلسفية كبيرة وحسب ، بل هي بنفس القدر ذات اهمية علمية طبيعية . وقد صاغ لينين موضوعة ، كون الاحساسات هي تحول طاقة الاثارة الخارجية الى واقع ادراك : ان الاحساس بالنسبة لكل عالم طبيعيات لم تضلله الفلسفة الاستاذية ، كما بالنسبة لكل مادي ، هو صلة مباشرة فعلا للادراك مع العالم الخارجي ، هو تحول طاقة الاثارة الخارجية الى واقع ادراك (٤٤) . وقد توصل العلم الطبيعي الى هذه الحقيقة بعد سنوات طويلة ، وتأكدت موضوعة لينين عمليا . ان نظرية الانعكاس هي جزء لا يمكن تجاهله من الفلسفة الماركسية .وهي تستند الى نظرية المعرفة للمادية الديالكتيكية ، مثلما بيّن لينين في « عشرة اسئلة الى المحاضرين » (٤٥) . واغنى هذا التأكيد في « المادية والنقد التجريبي » : ان الفرق الاساسي بين المادي ونصير الفلسفة المثالية يتجسد في اعتبار احساس الانسان ، ادراكه ، تصوره ، ووعيه على العموم صورة عن

---

(٤٤) نفس المصدر السابق ص ٥٨ .

(٤٥) قارن : لينين عشرة اسئلة الى المحاضرين ، في المؤلفات ، المجلد ١٤ ص ٧٠ باللغة الالمانية .

الواقع الموضوعي . فأن العالم هـو حركـة هذا الواقـع الموضوعي الذي يعكسه وعينـا (٤٦) » . وكذلك :« قدم للشيطـان الاصبـع الصغير ، وسيأخذ هـو اليد كلها .. ان اصحابنـا الماخيـون غارقـون بعمق في المثالية ... وذلـك منذ اللحظة التي اعتبروا فيهـا « الاحساس » ليس بمثابة صورة للعالم الخارجي ، بل كـ « عنصر » خاص ... احساس غير خاص بأحـد ، نفس غيـر خاصة بأحـد ، روح غير خاصـة بأحـد ـ ارادة غير خاصـة بأحـد ـ الى هذا يتوصل المرء حتمـا عندمـا لا يعترف بالنظريـة الماديـة التي تقول ان الوعـي الانساني يعكس العالـم الخارجي الفعلي موضوعيا (٤٧) .

لا يثيـر عجبنا ، ان تكـون نظريـة الانعكـاس الماركسيـة ـ اللينينية شوكـة في أعيـن الفلاسفـة الامبرياليين واتباعهم المحرفيـن . ففي عام ١٩٦٠ عقـد المحرفـون الفلسفيـون في مصيف (بليـد) اليوغسلافي مؤتمرا تحت عنوان : بعض مسائـل نظريـة الانعكاس ، واتفقـوا على اعتبار نظريـة الانعكاس الماركسية ـ اللينينية باليـة ، والذي لا يزال يتمسك بهـا فهـو « جامد » ولا رجـاء منه . وبصـدد تقويم هـذا المؤتمـر ولمواصلـة افكـاره نشر M. Markovic كتاب « ديالكتيك الممارسة » في المانيـا الاتحاديـة جاء فيه : ان مقولة الانعكاس لا تمتلك

---

(٤٦) لينين : المادية والنقد التجريبي، مصدر سابق ص ٢٤٣ .

(٤٧) نفس المصدر السابق ص ٤٤٦ .

مكانـا في نظريـة المعرفة ، وهي لا يمكـن ان تكـون اساسيـة ولا مقولة اساسيـة لنظريـة المعرفـة (٤٨) . لكنه يعترف حقـا ! اذا ما عكست احدى المعارف المعينـة ام لا ، يستطيع المرء ، في احسن الاحوال ، ان يقول ذلك بعـد ان يحقق النجاح في النشـاط العملي بفضـل هذه المعرفـة . اذا بعد ذلـك a Posteriori .

وعندمـا يسأل المـرء نفسه بتعجب : لماذا تحقـق النجاح ؟ يستطيع المرء ان يقول ، لوجود معرفة معينـة (فقط هذه) عكست الموضوع عكسا صحيحا ، بهذا القدر او ذاك . بالنص كتب Markovic ما يلي: في كل حالة من الحالات التي يتم فيها توجيه نشاطنا العملي بموجـب معرفة معينة، بحيث نحصل حقا على النتائج المتوقعـة، ينبثق التساؤل : كيف تفسر هذه الحالة، ما هو السبـب في تماثل تنبؤاتنا مع الاحداث الملحة؟ يمكن ان يكـون الجواب : ان حقيقة كون معارفنا تمكننا من التنبوء المضبوط والممارسة الناجحة تتوضح بعقلانية من كون معارفنا هذه، في الحالة المعطاة، هي الإنعكاس المكافيء لعلاقات العالـم الواقعي وخواص مواضيعه. بهذا المعنى اذا (a Posteriori) نستطيع ان نقول بأن كل المعارف الحقيقية هي انعكاسـات مكافئة للحقيقة (٤٩) . ويكمن هدف هذه الافكار فـي

---

(٤٨) Markavic : ديالكتيك الممارسة، فرانكفورت ـ مارس ١٩٦٨ ص ٤٠ باللغة الالمانية .

(٤٩) نفس المصدر السابق ص ٤١ .

الادعاء بعدم امكانية صيرورة مقولة الانعكـــاس مقولـــة اساسية في عملية المعرفـــة لسبب ان ليس كل المعارف تعكس الحقيقة، بل فقط، استنادا الى Markovic على المعارف الحقيقية، بشكو ادق، على التي يمكن اختبارهـا. والمفاهيم الخاطئة ، مثـــل الديـــن او (خداع الحواس Halluzinukon) لا تشكل اي انعكاس للحقيقة .

بهذه التصورات يبين «الخبراء» المتضلعون فيمـا عدا ذلك بالماركسية، بانهم لم يفهموا لا التعاليم التطبيقيـة ولا نظرية الانعكاس للمادية الديالكتيكية. فالجملة الاساسيـة الحاسم عند ماركس وانجلس ولينين هي، لا يوجـد اي شيء في رأس الانسان، في فهمه ووعيه، الذي لا يكـون بهذا الاسلوب او ذاك صورة للعملية الحياتيـة العمليـة للناس. وفي البدء لا يهم، فيما اذا كان الامر يتعلق بانعكاس صحيح ام خاطيء ، فعندما يتوصل الناس فـي المجتمـع الاستغلالي الى تصورات خاطئة، مشوهة، خيالية مثــلا دينية، فالامـر يتعلق في الاخر بالعلاقات الماديـة التـي يعيش في ظلها الناس، العلاقات التـي تشترط هـذه التخيلات، والتي هي ذاتها مشوهة. كتب ماركس وانجلس في «الايديولوجية الالمانية» : هل التعبير الواعي للعلاقـات الحقيقية لهؤلاء الذوات خيالي، هل يقلبون في تصوراتهـم حقيقتهم على راسها، اذا هذه هي، مرة اخرى، نتيجـة اسلوب نشاطهم المادي المحدد، ونتيجة لعلاقاتهم الاجتماعية المحددة الناتجة من ذلك » (٥٠) .

---

(٥٠) ماركس ـ انجلس : المؤلفات، المجلد الثالث ص ٢٦، الهـامش، باللغـة الالمانيـة .

هكذا، يكون اذا، مثلا، الاحتلاف الرئيسي بين النقد الماركسي للدين ونقد فورباخ له ــ وهذا يبدو قد عبر تماما على المحرفين ــ في ان ماركس لم ينتقد الدين مثل فورباخ بكونه نظرة مشوهة الى العالم، بكونه وعيا خاطئا ومشوها عن العالم فقط، بل بكونه وعيا لعالم مشــوه . عالم يجب ان يكون الانسان فيه كل شيء، يجب ان يكون كائن محتقر، مخذول، انه عالم نضال طبقة ضد اخرى، عالم استغلال الانسان من قبل الانسان. فالافكار الدينية حسب ماركس لا تتوضح ببساطة في الحكم الخاطيء على حقيقة اجتماعية صحيحة، ولا على اية تصورات خاطئة تعطــي مناسبة لحقيقة اجتماعية، فالانعكاس الديني هو انعكاس معيــن للحقيقة. انها دينية وتجعل الناس يعتقدون بالحيــاة السعيدة في العالم الاخر، لكونهم غير سعداء فــي هذا العالم، انها «تطبيق خيالي للكائن الانساني، لانه لا يمتلك حقيقة صادقة» (٥١) . انها وعي مشــوه ، لان الظــروف التي يعيش فيها الناس موجه ضدهم، مسيطرة عليهــم، بدلا من ان يسيطروا عليها، انها وعي غامض، غير مؤسس على التعقل، غير علمي» انها الشمس الخيالية التي تــدور حــول الانسان، طالما لا يدور هو حول نفسه» (٥٢) . ان نقــد فورباخ للدين لم يشكل بالنسبة لماركس النهاية، بــل

---

(٥١) ماركس : حول نقد فلسفة الحق الهيغلية في المؤلفات ، المجلــد ١ ص ٣٧٨ اللغة الالمانية .

(٥٢) نفس المصدر السابق ص ٣٧٩ .

في الواقع بداية النقد، النقد الحقيقي، النقد الموجه نحو جذور الدين. لقد اغفل فورباخ، بعد ان انجز عمله « بقي الشيء الرئيسي الواجب عمله» كتب ماركس في موضوعته الرابعة حول فورباخ .

وبالخصوص لان ماركس ولا في اية فترة من فترات ابداعه اتخذ نظرية تصور ميتافيزئية، ميكانيكية تتجاهل وجهة نظر الممارسة ، نظر دائما الى جميع التصورات والنظريات التي يولد فيها الناس صورة مثالية للحقيقة، ارتباطا بتلك الممارسة الاجتماعية. وهذه الممارسة هي التي تعين محتوى وحجم ما الذي سيفكر به وما سيدرك، وكيف سيدرك؟. ولهذا السبب ترتبط الممارسة ونظرية الانعكاس في نظرية المعرفة للمادية الديالكتيكية ارتباطا لا ينفصم، والا لا يمكن اعطاء اية اجابة علمية على القضايا المعقدة لعملية المعرفة الانسانية ولهذا السبب اكد لينين في«المادية والنقد التجريبي» على : «يجب ان تكون وجهة نظر الحياة، وجهة نظر الواقع العملي وجهة النظر الاولى والاساسية في نظرية المعرفة» (٥٣). واعطى في نفس الوقت وزنا كبيرا لبرهنة كون المعرفة ليست صورة ميكانيكية للواقع، بل صورة دياالكتيكية له. اذا عملية المعرفة هي عملية ديالكتيكية، لا يتنافى فيها الوهم والحقيقة وحسب، بل ايضا يشترط احدهما الاخر، من حيث تنشأ الحقيقة الموضوعية بوصفها وحدة ديالكتيكية بين الحقيقة

---

(٥٣) لينين، المادية والنقد التجريبي، مصدر سابق، ص ١٧٩ .

النسبية والحقيقة المطلقة. «في نظرية المعرفة، كما في جميع ميادين العلم الاخرى،تجب المحاكمة بطريقة ديالكتيكية وهذا يعني انه يجب علينا، لا ان نفترض معرفتنا ناجزة وثابتة لا تتغير، بل ان نحلل ونبحث بأي طريقة تظهر المعرفة في اللامعرفة، بأي طريقة تصبح المعرفة غير الكاملة، غير الدقيقة، اكمل وادق» (٥٤) . لكن ديالكتيك المعرفة هذا يجب ان لا يؤدي الى وضع المعارف المضمونة بشكل غير مبرر تماما موضع الشك و «تجديدها» من خلال اية معارف اخرى. مثل هذا الموقف تتخذه النسبية في الفلسفة. والنسبية حاليا هي احد الاسس المذهبية للتحريفية الفلسفية الراهنة. وهي تدعي بأن معارفنا حول العالم المحيط بنا هي نسبية، مشروطة زمنيا، زائلة وتبعا لذلك فهي دائما غير متكاملة. ولا يوجد في معارفنا شيء ساكن، ثابت ومتوقف. فالانسان يخطأ ما دام باقيا على قيد الحياة يلاقي مثل هذا الموقف ترحيبا واسعا من قبل التحريفية ايضا. فبمساعدته يمكن «التعليل فلسفيا» على الادعاء بكون الماركسية قد تخلفت. تؤدي النسبية الى مفاهيم حياتية ومواقف حياتية تشاؤومية وريبية ، الى البلبلة في التفكير والتصرف، وتولد اضطرابات في جميع الاشكال. اضافة الى ذلك تقدم النسبية نفسها كوسيلة مناسبة لتضليل الراي والديماغوجية . وبيّن لينين في مؤلفه «من يضع النسبية كاساس لنظرية المعرفة يحكم

---

(٥٤) نفس المصدر السابق ص ١٢٦ .

حتما على نفسه اما بالريبيية المطلقة، واللاعرفانية والسفسطائية واما بالذاتية. فان النسبية بوصفها اساس نظرية المعرفة، لا تعني الاعتراف بنسبية معارفنا وحسب، بل تعني كذلك انكار اي مقياس او موديل موضوعي، موجود بصورة مستقلة عن البشرية، تقترب منه معرفتنا النسبية. ومن وجهة نظر النسبية يمكن تبرير كل سفسطائية، فأعتبار ما اذا كان نابليون قد توفي في ٥ ايار ١٨٢١ ام لم يتوف أمر «شرطي»، يمكن اعتبار قبول الايديولوجية الدينية («الملائمة» جدا على صعيد ما) الى جانب الايديولوجية العلمية («الملائمة» على صعيد اخر) مجرد «ملاءمة» لاجل الانسان او لاجل الانسانية، والخ.

ان الديالكتيك ـ كما سبق واوضح هيغل ـ ينطوي على عنصر النسبية والانكار والريبية، ولكنه لا ينحصر في النسبية. ان الديالكتيك المادي لماركس وانجلس ينطوي بلا ريب على النسبية، ولكنه لا ينحصر فيها اي انه يعترف بنسبية جميع معارفنا، لا بمعنى انكار الحقيقة الموضوعية، بل بمعنى الشرطية التاريخية لمدى اقتراب معارفنا من هذه الحقيقة (٥٥) .

لقد علل لينين، بأن نظرية المعرفة العلمية يجب ان ترتبط بالاعتراف بالمقدمات التالية :

اولا : بالمادية الفلسفية (تعاليم مادية العالم)، ثانيا: نظرية التطور الديالكتيكية (الديالكتيك المادي)، ثالثا:بالمادية

---

(٥٥) نفس المصدر السابق ص ١٧١ .

التاريخية (وجهة نظر الممارسة في عملية المعرفة) .

تحتل نظرية المعرفة في العادة الموقع المركزي في الفلسفة المثالية. وهذا يمكن توضيحه ببساطة، فكل الفلاسفة المثاليون ينطلقون من ان الروح، الفكر، الافكار هي اولية نسبية الى الطبيعة او الى الكائن. في «المادية والنقد التجريبي» يتوضح بان نظرية المعرفة لا تستطيع ان تلعب هذا الدور المركزي في المادية الديالكتيكية والتاريخية، لانها، مثلما ذكرنا توا مرتبطة بمقدمات معينة. فنظرية المعرفة الماركسية تنطلق من ان المادة اولية نسبة الى الوعي، والفكر يكون عملية مثالية لتصوير الواقع. اضافة الى ذلك فانها تنطلق من ان المعرفة هي عملية ديالكتيكية، اي يعكس الديالكتيك العالم الموضوعي في الاخر تبني نظرية المعرفة الماركسية تعاليمها على الاساس الامين للمادية التاريخية : ان الانسان الذي يقوم بالمعرفة هو كائن اجتماعي، ومعرفة العالم في اساسها هي عملية اجتماعية .

٤ ـ حزبية الفلسفة :

تتغلغل مجمل العمل الفكرة المبدئية لحزبية الفلسفة. ويعرض لينين بأقناع بانه لا يمكن ان توجد لاحزبية في حقل الفلسفة. فالصراع بين المادية والمثالية يعبر دائما عن مصالح تلك الطبقات التقدمية او الرجعية. ومن اجل عدم الوقوع في الخديعة وخداع الذات، ينبغي على الماركسيين

ان لا يتركوا ابدا نقطة استناد حزبية الفلسفة، عند الحكم على الفلسفة البرجوازية، حتى عندما تبدو وكأنها جديدة.
«ان مصيبة الماخيين الروس الذين يريدون «التوفيق» بين الماخية والماركسية تتلخص على وجه الضبط في انهم وثقوا باساتذة الفلسفة الرجعيين فانزلقوا على منحدر. ان شتى محاولاتهم لتطوير ماركس وتكميله ترتكز على اساليب في غاية السذاجة . لقد قراوا اوستفالد، وآمنوا باوستفالد وعرضوا اوستفالد، وسموا هذا بالماركسية. قراوا ماخ، وآمنوا بماخ وعرضوا ماخ وسموا هذا بالماركسية.. عندما يدور الكلام حول الفلسفة، لا يمكن تصديق اية كلمة من اي من هؤلاء الاساتذة مع انهم يستطيعون تدبيج مؤلفات ذات قيمة كبيرة جدا في ميادين خاصة من الكيمياء والتاريخ والفيزياء. لماذا؟ لنفس السبب الذي يحمل على عدم تصديق اية كلمة من اي استاذ في الاقتصاد السياسي عندما يدور الكلام حول نظرية الاقتصاد السياسي العامة، مع انه يستطيع تدبيج مؤلفات ذات قيمة كبيرة جدا في ميدان الابحاث العلمية، المختصة، وذلك لان هذه النظرية، شأنها شأن علم العرفان، هي علم حزبي في المجتمع المعاصر. وليس اساتذة علم الاقتصاد، بوجه عام، سوى خدم متعلمين لطبقة الراسماليين، وليس اساتذة الفلسفة سوى خدم متعلمين للاهوتين (٥٦) .

الا تمتلك هذه الافكار حيوية عظيمة في هذه الايام

---

(٥٦) نفس المصدر السابق ص ٤٤١ – ٤٤٢ .

بالضبط؟ لقد قدم عدد ليس بالقليل من العلماء البرجوازيين انجازات عظيمة في مجـالات تخصصيـــة مختلفة مثــل السيرنيتقا، الوراثة او المنطق الرياضي، التي ينبغـــي ان لا نتجاهلها. لكن تجاه كل المفاهيم الاجتماعية الفلسفيـــة المرتبطة بهذه المعارف لا تعرض اكبر ريبة فقط في رد هــذه الاراء بحزم. ففي المجتمع الطبقي، او استنادا الــى الصراع الطبقي الراهن بين المنظومتين العالميتين يكون توقع وجــود عالم غير متحزب، لا يعني سوى خداع الذات . وبخـــلاف الفلسفة والمذهب البرجوازيين ، اللذين يخفيـان تحزبهــم لمصالح راس المال تحت غطاء «الحيادية» تجاهر الفلسفــة الماركسية علنا بتحزبها لقضية الطبقة العاملة، ولسبب هذا التبني تعرض المذهب الماركسي منذ البداية الى عـــــداوة ضارية، وتكرر دائما ذريعة : الفلسفة المتحزبة لا يمكن ان تكون في نفس الوقت علمية. فالعلمية والحزبية شيئـــان متناقضان ومتنافيان . تتطلب العلمية موضوعيـــة وحرية تقويم، والحزبية هي (تحاملية) مشوشة ونقل للذاتية الــى العلم او الى الفن ايضا، ان هذه الادلة التي تبدو (مقنعــة) تستند على المقدمة المعتبرة غير قابلة للدحض، الموضوعية العلمية والحزبية يتناسبان فيما بينهـمـا كمتناقضيـــن متناحرين. في الواقع توجد امثلة عديـــدة تؤيد هـــذا الافتراض. لنفكر فقط بعدد الاكتشافات العلمية والحلـول التكنيكية الجديدة المخبئـــة في خزائـــن الكونسرتات الامبريالية، لان تنفيذها يرتبط بتقليل ارباحها. فحالما تمس المعارف العلمية المصالح الحزبية للبرجوازية الاحتكاريـــة

يجري «دحضها» او السكوت عنها. واليوم تسري الامور في الدول الراسمالية على هذه الشاكلة، فمثل هذه المعارف لا تظهر الا بالكاد، على كل حال ليس في المؤسسات العلمية التي تمولها دولة الاحتكارات، وقطعا ليس في مؤسسات بحوث الكونسرتات .

لكن ماذا يحدث، مثلما هو عليه الحال في العلم الماركسي، عندما نقدم للحزبية دائما وفي كل الاحوال موضوعية علمية صارمة، والتي يشكل خرقها خرقا لوصية الحزبية في نفس الوقت؟ عند ذلك لا تتنافى العلمية والحزبية ابدا كمتناقضين متناحرين، بل تشترط احداهما الاخرى وتشكلان وحدة واحدة. ان المقدمة التي تستند ايها الادلة المذكورة ، ليست سهلة الدحض بالمرة ، مثلما تبدو لاول وهلة. انها تنطلق من ان الوقائع الموجودة في الفلسفة البرجوازية ـ هنا تتعارض المصالح الحزبية للبرجوازية، بهذا القدر او ذاك حقا مع الموضوعية العلمية ـ معطاة ايضا في الفلسفة الماركسية. وقد قدم التاريخ امثلة كافية، ويقدمها الان بوضوح ظاهر في الدول الامبريالية، ان الطبقة المستغلة مهتمة بالحقيقة العلمية الى ذلك الحد والى ذلك البعد، الذي تكون فيه نافعة لمصالحها الطبقية الانانية. ان اكتساب المعرفة خاضع لمصالح الطبقة المستغلة، التي تسيطر على الهدف الذي يجري البحث العلمي بموجبه، وكذلك على تقويم نتائج البحث. ويجري هذا الامر على العلم بشكل عام. واما فيما يتعلق بفلسفة الطبقات الاخرى، فنستطيع ان نقول، انها ترتبط بوثوق

بمصير الطبقة المستغلة .

تقع على الفلسفة مهمة «تعميد» نظام الملكية الخاصة، والاستغلال والقمع، وتعليل ديمومتها وبهجتها. وتشكل الفلسفة احد اسس النظرية الايديولوجية للطبقات المستغلة في اول الامر تمتلك فلسفة هذه الطبقات طبيعة تقدمية صاعدة، وبعد ذلك طبيعة مناسبة لسقوط هذه الطبقات، رجعية، نازلة، واحيانا معادية جدا للانسانية. من هذا يتوضح عدم توقع حقائق من ممثلي الفلسفة في مرحلة الانحدار، لكن حتى في مرحلة التقدم، حيث يتسم البحث الفلسفي بمقدار معين بالعفة، يصعب اكتساب المعرفة العلمية من قبل عراقيل طبقية متعددة. لنفكر قليلا بالفلسفة الما قبل الماركسية، لنفكر بممثليها البارزين ـ لايبنز، هيغل، فورباخ ـ يتوضح لدينا سبب عدم ثباتهم واوهامهم وتذبذهم، بسبب الطبيعة الطبقية للمذهب البرجوازي. لقد كانت البرجوازية الالمانية في ذلك الحين تقدمية وساعية لكن منذ اللحظة التي سيطرت بها البرجوازية اختفت ايضا البقية الباقية من البحث العفيف (غير النفعي). لان الامر لا يتعلق بعد، كما كتب ماركس «فيما اذا كانت هذه النظرية او تلك حقيقة، بل فيما اذا كانت نافعة ام ضارة لراس المال، مريحة ام مزعجة، غير ملاءمة للشرطة ام لا . بدلا عن البحث العفيف ظهر الكتاب المرتزق، وبدلا عن البحث العلمي غير المتحزب دخل الضمير الخبيث والهدف السيء للمبررين» (٥٧).

---

(٥٧) كارل ماركس : راس المال، الجزء الاول، في المؤلفات، المجلد ٢٣ ص ٢١ باللغة الالمانية .

لقد كان ماركس يعني بهذه الملاحظات، بشكل خـاص، الاقتصاد السياسي البرجوازي، لكنها تسري بنفس القدر على الفلسفة البرجوازية . ان مثل هذه العراقيل والحدود في المعرفة العلمية غريبة تماما عن الطبقة العاملة ، وخاصة منذ اللحظة التي اكتسبت بها الحركة العمالية مضمونـــا جديدا، اين تمارس الطبقة العاملة السلطـــة، تبعا لذلـك اين تتلاحم الاشتراكية والعلم مشكلة كلا موحدا. ان السعي نحو المعرفة العلمية الدقيقة المكنة للعالم الموضوعي، يتنافى مباشرة مع المصالح الحياتية للطبقة العاملة ، وهـي بحاجـة الى العلم من اجل تأدية مهمتها التاريخية. وهـــي الطبقة الوحيدة في التاريخ التي لا تضع امام اكتساب المعرفـــة العلمية اية عراقيل. وليس من الصعب التصور، بـــأن الطبقة العاملة ستكون غير قادرة على اداء مهمتها التاريخية عندما ستؤمن بالعجائب والارادة الالهية وملائكة الرحمـة، عندما تستند نظرية البروليتاريا على وحدانية الجانـــب والتذبذب، على الشعوذة المثاليـة والتصورات الإلية، اذا على المقدمات التي لا تسمح باكتساب الرؤيا العلمية فـــي قوانين الطبيعة والمجتمع. ان الطبقة العاملة بحاجة الـــى علم القوانين التي تسير الطبيعة والمجتمع الى الامـام، ان لهـا مصلحة في الحقيقة الكاملة، من اجل اقامة المجتمـــع الخالي من الاستغلال، المجتمع الاشتراكـي، بصورة اسرع وافضل. وقد وجد العلم في الطبقة العاملة موطنه الحقيقي قال انجلس: «لا يهتمون بمنصب ولا بربح، ولا بحمايـــة رحيمة من الاعلى، بل على العكس، فبقدر ما يتقدم العلـم

ببسالة واقدام، بقدر ما يجد نفسه متفقا مع مصالح واهداف العمال » (٥٨) .

في الحزبية الصريحة للمادية الديالكتيكية تكمن اهمية اخرى، طالما وجدت الامبريالية تعيش الفلسفة في صراع داخلي، والذي ينوجد بصورة حادة في المجال الايديولوجي والامر لا يتعلق هنا بوضع ملاحظات طويلة، فيما اذا كان الخصم نبيل او مستقيم او ممتع، فيما اذا كان يتبع ، حسب الامكان، اهدافا خاصة ـ على المرء ان يصيبه ويغلبه. وهذا ما تعرضه القاعدة الاساسية لحزبية البروليتاريا اما الفلسفة الامبريالية فقد اوجدت تفننا خاصا لاخفاء حزبية مذهبها وايديولوجيتها، وذلك بتغطيتها بملصقات تبدو موضوعية وطرحها كلاحزبية صرفةوكحقيقة خالصة. كتب نارسكي «ان الحزبية الشيوعية تعترف بصراحة بالطبيعة الطبقية للفلسفة ولا يمكن فصلها عن الموضوعية العلمية، اما الحزبية البرجوازية فكاذبة ومنافقة، وتخرق دائما العلمية، من حيث انها تقلل من حزبيتها وتحاول خلق الغموض» (٥٩) .

يوجد العديد من الناس، لا سيما قليلي الخبرة في الصراع الطبقي، وخاصة الشباب، الذين يتأثرون بهذا

---

(٥٨) فريدرك انجاس، لودفيج فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية ص ٦٨ ـ ٦٩، في المختارات (ماركس وانجاس) الجزء الرابع، دار التقدم ـ موسكو .

(٥٩) نارسكي ، مصدر سابق، ص ٩ ـ ١٠ .

الخداع وبسبب ذلك لا يستطيعون ايجاد الحقيقة وينجرون الى شيء من الريبية .

ان كل تاريخ الفلسفة يدلل على وجود صراع طبقي حاد، ايضا في مجال المذاهب ، صراع بين الاحزاب المختلفة، والفلسفة البرجوازية الراهنة هي حزبية تماما مثلما كانت عليه قبل مئات السنين. وتعلمنا قاعدة حزبية الفلسفة، ان نرى الانواع المختلفة للفلسفة البرجوازية على حقيقتها، حتى وان عزفت بأغراء، وبغض النظر عما اذا كان الامر يتعلق بمفاهيم الاشتراكية الديمقراطية او التحريفية اليمينية او اليسارية : تعبير ايديولوجي عن المصالح الطبقية للبرجوازية، طريقة للنضال ضد المذهب العلمي للطبقة العاملة. ان حزبية الفلسفة الماركسية (تهيىء) قيادة النضال الجاد ولمصلحة الانسانية والعلم، وغير القابل للمساومة مع كل ظواهر الفلسفة الامبريالية والايديولوجية الامبريالية، ولا تسمح للاكاذيب المتخفية بغطاء الموضوعية لـ«حقيقة» ان تكسب اي تأثير. وعندما تعلن الفلسفة الماركسية حزبيتها بصراحة لقضية الطبقة العاملة ، فانها لا تحدد بذلك ولا بالقليل فعاليتها وتأثيرها. الاف الحقائق تؤكد : ان حزبيتها العلنية لم تكن ابدا سببا معرقلا، انها اصبحت فلسفة الجماهير، سبب تعيين سلوك ملايين العمال والمستخدمين والمثقفين والفلاحين الشغيلة والفئات الشعبية الاخرى .

الفصل الرابع

مسألة الحقيقة

تكمن احدى الافكار الاساسية الهامة الاخرى للعمل في ابراز الطبيعة الموضوعية للحقيقة وكذلك في العرض الديالكتيكي لمعرفة الحقيقة. وترتبط هذه المسألة بوثوق بنظرية الانعكاس المادية وبمبدأ الحزبية. ان التساؤل نحو صحة او خطأ المعرفة لعب منذ القدم دورا كبيرا وشكل موضوعا لنزاعات حادة بين المادية والمثالية. وبذلك كان للطبقات الاجتماعية المختلفة، ارتباطا بأهدافها ومصالحها، علاقات بالحقيقة متباينة ومتعارضة. الطبقة العاملة بحاجة اليها من اجل تحقيق رسالتها التاريخية، انها ذات مصلحة كبيرة بالحقيقة، واستنادا الى موقعها الاجتماعي تكون مؤهلة للوصول اليها ووضعها بلا حدود في خدمة التقدم الاجتماعي .

بصورة اخرى تقف الطبقة المستغلة الامبريالية تجاه الحقيقة، فهي استنادا الى موقعها الاجتماعي غير قادرة، وتبعا لطبيعتها الرجعية غير راغبة في عكس التطور الاجتماعي مثلما هو عليه في الواقع، ان الايديولوجيين البرجوازيين «يتعذر عليهم معرفة الحقيقة، او يحرفوها بتعمد بسبب كراهيتهم للاشتراكية، بسبب معاداتهم للشيوعية» (٦٠). وتنعكس هذه العلاقة المتناقضة للطبقات الاجتماعية المختلفة بالحقيقة في مفاهيمهم حولها. فكل مفهوم للحقيقة محدد سياسيا ويحمل طبيعة طبقية. وهي تقوم بوظيفة جوهرية في الصراع الطبقي الايديولوجي.

وهذا يشاهد دائما سواء في النزاع مع مفاهيم الحقيقة الامبريالية والتحريفية ام في الصياغة اللاحقة والتثبت لنظرية الحقيقة الماركسية. بوغدانوف والماخيون الروس الاخرين ادعوا، بعدم وجود حقيقة موضوعية، بأن حقيقة المعارف ترتبط فقط بالذات المتعرفة، بالانسان. وكتب بوغدانوف : «الحقيقة هي شكل ايديولوجي-الشكل المنظم للتجربة الانسانية، وبرز في هذا الصدد خاصة «التجربة الجماعية» (٦١). وعارض لينين هذا التعريف، لان تبعا لذلك يجب ان يكون الدين (الكاثولوكية) ايضا حقيقة، لانه « لا يوجد ادنى شك، بان الكاثولوكية شكل

---

(٦٠) كورت هاجر : حول الوضع الفكري الراهن ، برلين ١٩٦١ ، ص٤٢ باللغة الالمانية .

(٦١) اخذ النص من المادية والنقد التجريبي ص ١٥٣ (مصدر سابق).

منظم للتجربة الانسانية» (٦٢) . وبيّن «ان التعريف المثالي لبوغدانوف خاطىء في الاساس» و «ان العالم الفيزيائي موجود بصورة مستقلة عن الانسانية، وعن التجربة الانسانية، وان العالم الفيزيائي كان موجودا عندما لم يكن من الممكن ان تقوم اية «اجتماعية » واية «تنظيمية» للتجربة الانسانية » (٦٣). لقد دافع لينين عن وجهة النظر المادية، بان الحقيقة هي احدى صفات المعرفة، التي تكمن في عكس الحقيقة بشكل صحيح، مكافيء .

يكون القول صحيحا، عندما يتوافق مع الوقائع التي يعبر عنها . ويكون خاطئا عندما لا يتوافق مع الوقائع التي يعبر عنها. ولكون الحقيقة تحمل طبيعة موضوعية، اذا يكون القول دائما مضبوطا وبعد ذلك صحيحا، عندما يكافىء الموضوع، اي عندما يعكس الشيء بصفاته وعلاقاته مثلما هو موجود موضوعيا واقعيا، ومستقلا عن الانسان المتعرف .

وقد اكد لينين على ان الحقيقة هي دائما حقيقة موضوعية، لانها متوافقة مع الواقع الموضوعي، المستقل عن الفاعل المتعرف، عن الانسان والانسانية. وعندما تعكس احدى المعارف الحقيقة عكسا صحيحا، تمتلك هي مضمونا لا يرتبط بالانسان الواحد ولا بالانسانية. ومثل هذه الحقيقة هي صحيحة موضوعيا.

---

(٦٢) نفس المصدر السابق ص ١٥٤ .

(٦٣) نفس المصدر السابق ص ١٥٤ ـ ١٥٥ .

تنتج الحقيقة الموضوعية من الوجود الموضوعي ـ الواقعي، وكذلك من التحددية الموضوعية ـ الواقعية لكل موضوع معرفة. لذا فأن القول الذي يعكس موضوع معرفته عكسا مكافئا، هو حتما (واقع موضوعي) والاعتراف بموضوعية الحقيقة هي موضوعة اساسية للمادية. فبينما بالنسبة للمثالية واللاعرفانية لا يمكن ان توجد حقيقة موضوعية يكون «بالنسبة للمادية ... الاعتراف بالحقيقة الموضوعية أمر جوهري » (٦٤) مثلما كتب لينين. وبموضوعة موضوعية الحقيقة التي يعبر عنها مفهوم مادية العالم وقابلية معرفته، تفترق الماركسية بجلاء عن جميع مفاهيم الحقيقة المثالية واللاعرفانية. وتكتسب اشارة لينين الى ان الحقيقة هي دائما حقيقة موضوعية اهميبة كبيرة في التوجه العرفاني والمنهجي. فمثلا، عندما نحكم على صواب او خطأ احد الاقوال، فسنكون غير قادرين على ايجاد القرار النهائي ما دمنا لم نقارن هذا القول مع الشيء الموضوعي الذي يعبر عنه .. فمن اجل ان نعرف فيما اذا كان القول المعين صحيحا ام خطأ، يجب علينا كشف العلاقة بين الشيء الموضوعي والقول، يجب علينا ان نقارن القول مع الواقع. وهذه المقارنة تحصل في الممارسة، التي ترتبط فيها المعرفة بالموضوع. لذلك يتوجب ان تتوجه نظرتنا اولا نحو الواقع الموضوعي وليس بالدرجة الاولى نحو القول بصددها، فالحقيقة (او الخطأ) هي علاقة بين الشيء

---

(٦٤) نفس المصدر السابق .

الموضوعي وانعكاسه الفكري. والامر يتعلق بنقطتي استناد منها واحدة ـ الواقع الموضوعي الذي هو لا صواب ولا خطأ ـ التي تعين حقيقة احدى المعارف .

يشترك كل المثاليين في نفيهم للطبيعة الموضوعية للحقيقة، اي الاعتراف بواقع، ان المعرفة تكتسب صفة الحقيقة عندما تتوافق مع الواقع الموضوعي، الموجود خارج المعرفة المعينة ومستقل عنها. وهم يحاولون جعل الحقيقة ذاتية او يحولونها الى «طبيعة مثالية» . فالمثالية الذاتية والتحريفية المعللة ذاتيا تنكران موضوعية الحقيقة وتنسبانها بشكل رئيسي الى محصلات الوعي، التي هي زعما بدون اي استناد الى الواقع الموضوعي . هكذا تعرف مثلا نظرية الرابطة السائدة في الوضعية الجديدة وفي الكانطية الجديدة، الحقيقة بوصفها توافق لاقوال مختلفة. اما الفلسفة الرجعية العلنية للبرغماتية فهي تماثل الحقيقة بالفائدة، بشعارها : «الحقيقي هو ما يفيد » وهي تقدم للبرجوازية الامبريالية امكانية اعلان كون كل مفهوم صحيح عندما يناسب مصالحها الرجعية والمعادية للانسانية وللشيوعية اما التوفيقية فتعتبر الحقيقة مسألة اتفاق ووجهة نظرها تتمثل في : الحقيقي هو ما يتفق على كونه حقيقيا، وتفتح بذلك كل الابواب امام التعسف الذاتي في مجال الحياة الاجتماعية .

تلعب مفاهيم الحقيقة المثالية دورا هاما في الصراع الطبقي، وهي تقدم لاسلوب الكذب والتضليلي الراسمالي التعميد الفلسفي للحقيقة . لنوضح هذا بمثال صغير . من

المعروف ان البرغماتية تنشر الموضوعة التالية : «تكون احدى المعارف حقيقة، عندما تكون مفيدة». وتدعي النيوتوماسية : بالنسبة للمعرفة يكون الحقيقي، هو ما يمنحه الشعور الاعلى من الضمانة الداخلية (٦٥). صحيح كل معرفة حقيقة تكون نافعة في نفس الوقت، لكن ليس كل قول او نظرية نافعة تكون صحيحة في نفس الوقت. مثلا الاكاذيب المبثوثة من قبل ايديولوجي معاداة الشيوعية عن الاشتراكية هي مفيدة للقوى الامبريالية، لكنها تقلب الحقيقة على راسها. مثلما يريدون، كل حقيقة تمنح ايضا «الشعور الاعلى» ضمانة داخلية، لكن ايضا الكذبة يمكن ان تجعل هذا الشعور مؤثرا، وفي الاخر لا تتوضح هذه ككذبة، بل تظهر دائما تحت غطاء «الحقيقة الناصعة الشجاعة». وطالما لا يزال يصدق بالكذبة، تمنح من تصدقها والذي اوجدها ونشرها شعورا خادعا بالامان .

لقد حطم لينين في «المادية والنقد التجريبي» مفهوم الحقيقة الميكانيكي والميتافيزيقي للماخيين الروس. فقد اظهر بأن كل اشارة الى الممارسة بوصفها المحك الاعلى للحقيقة يجب ان تحسب حساب كون الممارسة تتطور باستمرار، ويجب ان تفهم كعملية. لكن من طبيعة عملية محك الممارسة تنتج علاقات جوهرية مع الحقيقة. واشار لينين في هذا الصدد الى ان الممارسة هي محك حقيقة

---

(٦٥) يعتقد انصار النيوتاماسية بأن كل الحقيقة تعين في الاخير من قبل الله .

ديالكتيك، اي ان الممارسة هي في نفس الوقت محك مطلق ونسبي» (٦٦). كيف يفهم هذا؟ عندما تعرض الممارسة الاختبار الاخير والنهائي للمعرفة تكون مطلقة، وما يبرهن عليه من قبل الممارسة يكتسب طبيعة الحقيقة الموضوعية ولا يوجد محك اعلى من ذلك. لكن الممارسة كمحك للحقيقة تتضمن ايضا عنصرا نسبيا. فحدوث وتطور عمليات المعرفة ترتبط في اخر المطاف بمستوى تلك الممارسة. ويرتبط ايضا اختبار واستعمال احدى المعارف بمستوى تطور الممارسة المتاح. من هذا ينتج بان الممارسة في مرحلة تطور معينة لا تستطيع تماما تأكيد او دحض احدى المعارف. وهذا يتوضح مثلا، لماذا مرت مئات من السنين حتى اصبح اختبار موضوعة عدم قابلية الذرة للانشطار ممكنا؟. اذا عندما نتكلم عن الممارسة كمحك للحقيقة، يتوجب علينا دائما ان نأخذ بنظر الاعتبار عملية تطور الممارسة. فقط الممارسة بتطورها يمكن ان تكون محكا للمعرفة المتطورة ايضا. واشار لينين الى «ان محك الممارسة لا يسعه ابدا، من حيث جوهر الامر، ان يؤكد او يدحض كليا اي تصور بشري كان. وهذا المحك هو ايضا «غير واضح» الى درجة انه لا يتيح لمعارف الانسان ان تتحول الى «مطلقة»، وهو في الوقت نفسه واضح الى درجة انه يتيح خوض النضال بلا هوادة ضد جميع انواع المثالية واللاعرفانية» (٦٧).

---

(٦٦) قارن : المادية والنقد التجريبي، مصدر سابق .

(٦٧) نفس المصدر السابق .

ان هذا الديالكتيك لمحك الحقيقة يبين ان كل حقيقة موضوعية تتضمن عنصرا مطلقا واخر نسبيا. ويعبر عن الحديث بمصطلحات الحقيقة المطلقة والحقيقة النسبية . وبالاخص من وجهة النظر هذه اجاب لينين عن قضايا التطور الخلاق للماركسية وفلسفتها. فالماركسية نشأت وتطورت قبل كل شيء على اساس الممارسة الاجتماعية للطبقة العاملة.

ومثلما تتطور هذه الممارسة وتتغير تتطور نظرية الطبقة العاملة ايضا. ان الماركسية هي تعاليم ثورية سائرة الى الامام، تعاليم ديناميكية مرتبطة بالحياة . وان تطورها الخلاق لا يحصل بدون مقدمات، ان تقدم النظرية الماركسية يحصل استنادا الى الطريقة الماركسية. وكل طريق اخر يقود الى الارباك والاكاذيب. ان التعاليم الفلسفية المؤسسة من قبل ماركس وانجلس تؤلف اسلوبا متلاحما، منطقيا ومنسجما. قال لينين : « وفي فلسفة الماركسية هذه المصبوبة من قطعة واحدة من الفولاذ، لا يمكن سحب اية مقدمة اساسية، اي جزء جوهري، دون الابتعاد عن الحقيقة الموضوعية، ودون السقوط في احضان الكذب البرجوازي الرجعي» (٦٨) .

---

(٦٨) نفس المصدر السابق ص ٤٢٠ .

ملاحظة ختامية

لنرجع في ختام هذا العرض الى مراسلات لينين في عـام ١٩١٣، بعد خمس سنوات من تأليف لينين لل«المادية والنقد التجريبي». فقد لعب نقد لينين للماخية مـــرة اخرى دورا معينا في مراسلات لينين مع غوركي . حيـث اخبر غوركي لينين بان بعض الماخيين القدامى قد ندمـوا على اخطائهم، ويناضلون الان سياسيا بنشـاط ، ومـن المحتمل انهم قد تخلوا عن ضميرهم الفلسفي الماخي. ويقول لينين في رسالته الجوابية « لا اعرف اذا كان باستطاعـة بوغدانوف وبازاروف وفولسكـي ... لونتشارسكـي والكسنسكي التعلم من التجارب المريرة للسنـوات ١٩٠٨ ـ ١٩١١. هل ادركوا ان الماركسية هي قضية اكثر جدية واكثر عمقا مما بدا لهم، لا يجوز ان يستهزيء المرء بها، مثلما فعل الكسنسكي، او معاملتها كشيء فاحش، مثلما فعل الاخرون؟ لو ادركوا هذا لاحييهم الف مرة وسأسحب خطا

تحت كل الاشياء الشخصية (التي جلبها النضال الضاري معه حتما). لكن لو لم يدركوا، لو لم يتعلموا، فلا يؤاخذ علي: فهنا لا تنفع اية صداقة، الاكليل يجب ان يثقب. فعند محاولة امتهان الماركسية او نقل البلبلة الى حزب العمل فسنناضل حتى الموت» (٦٩) . تبين هذه الرسالة جدية وثبات نضال لينين من اجل المحافظة على نقاوة الماركسية، مدركا حقيقة كون الفلسفة والسياسة، النظرية والممارسة تشكلان وحدة لا تنفصم في الماركسية .

في مجال النظرية لا يوجد ولا يسمح بوجود اية اكاذيب، اية مساومات، اي «تعايش سلمي». هذا ما بينه ماركس وانجلس في مؤلفاتهم الاولية، ووجد هذا انعكاسه المنهجي في شهادة ميلاد الشيوعية العلمية، «بيان الحزب الشيوعي». ان الماركسية ـ اللينينية هي احد سلاح وبوصلة للطبقة العاملة على طريق تحررها. ويقدم نضال لينين ضد التحريفية الفلسفية الدرس الحاسم: الاخلاص الشرطي للتعاليم المؤسسة من قبل ماركس وانجلس هو السمة الاولى الاساسية للموقف الخلاق تجاه المذهب العلمي للطبقة العاملة .

ان الماركسية ـ اللينينية هي تعاليم خلاقة وتمتلك بسبب ذلك قوة مغيرة جبارة. والعلاقة الخلاقة بالنظرية هي احدى الصفات الهامة للحزب من الطراز الجديد، التي

---

(٦٩) رسالة الى غوركي في ٨ كانون الثاني ١٩١٣، في الرسائل المجلد ٣ ص ١٤٥ .

تفرقه عن جميع الاحزاب والتيارات الانتهازية. وتتطلب قيادة النضال الطبقي وادارة العمليات الاجتماعية في بناء الاشتراكية ، عدم فصل التملك المتواصل للنظرية الماركسية ـ اللينينية واستخدامها عن النضال السياسي اليومي. ان التبدل السريع في الاحداث السياسية، من خلال تغييرات التكتيك الضرورية المتعددة في مجرى النضال الطبقي، تتطلب التملك الامين للماركسية ـ اللينينية، من اجل ان يكون المرء على قمة المتطلبات السياسية وكل مدخل عملي صرف الى المهام الواجبة الحل تقود الى فقدان الافاق والى قصر النظر السياسي. وتتجذر الضمانة السياسية في خضم النضال الثوري، في الموقف الطبقي البروليتاري الصلد وفي الاستيعاب المتواصل للنظرية الماركسية ـ اللينينية المرتبطة بالممارسة. لقد وقف لينين دائما ضد اي فصل بين النظرية والممارسة، لان من خلال ذلك تفقد النظرية قوتها المغيرة للمجتمع. وطلب من عمال الحزب ومن المحرضين في ما العمل؟... توحيد معرفة بيئة العمال وطزاجة الاقناع السياسي مع التأهيل المهني، بدون ذلك لا تستطيع البروليتاريا قيادة النضال الضاري ضد اوساط اعدائها المتعلمين بشكل ممتاز» (٧٠) .

ومثلما اكد تاريخ الحركة العمالية يصبح الشيوعيون قادة الجماهير الحقيقيين عندما يتم ربط العمل النظري بالنشاط العملي السياسي ربطا لا يمكن فصله، عندما تخدم النظرية الممارسة، عندما تحل القضايا التي تطرحها

---

(٧٠) لينين، المؤلفات، المجلد ٥، ص ٤٨٩ـ٤٩٠ باللغة الالمانية .

الحياة، والاجابات تجتاز اختبار الممارسة . وقد عرى لينين دائما التصرف الديماغوجي الجامد تجاه النظرية . وقال : «الديماغوجي هو الذي يحصر نفسه بنصوص مثل العالم، الذي يملك في راسه درج كامل من النصوص، والتي يخرجها كل مرة، لكن عندما يظهر تركيب جديد الذي لا يوجد في اي كتاب، يرتبك ويأخذ بالتأكيد النص الذي لا يتوافق مع الموضوع» (٧١) .

ان نجاح سياسة الحزب الماركسي ـ اللينيني يرتبط بدرجة كبيرة بمستوى العمل النظري، اي من الفهم الصحيح للمتطلبات الموضوعية للتطور الاجتماعي، من التصميم العلمي لنتائج نشاط وتجارب الجماهير وبذلك يتأتى على الفلسفة الماركسية ـ اللينينية دورا حاسما، انها الاساس المذهبي ـ النظري لسياسة الحزب .

---

(٧١) لينين : حديث حول خداع الشعب بشعارات الحرية والمساواة ، القيت في المؤتمر الروسي العام لتعليم الكبار، ١٩ ايار ١٩١٩، في المؤلفات المجلد ٢٩ ص ٣٠٢ باللغة الالمانية .

الفهرس

سلسلة دليل المناضل

تهدف سلاسل دليل المناضل التي تقدمها دار ابن خلدون للقاريء العربي الى تقديم خلاصة مبسطة قدر الامكان لمختلف فروع المعرفه بمنهج علمي تقدمي .

وتشمل هذه السلاسل على :

١ – سلسلة : في النظرية
٢ – « : تجارب اشتراكية
٣ – « : تجارب حزبية
٤ – « : تجارب حركات التحرير الوطني
٥ – « : المكتبة الأقتصادية
٦ – « : المكتبة الأدبية
٧ – « : دراسات عربية
٨ – « : مكتبة الشبيبة
٩ – « : المكتبة العمالية

الثمن ٣٥٠ ق.ل. او ما يعادلها